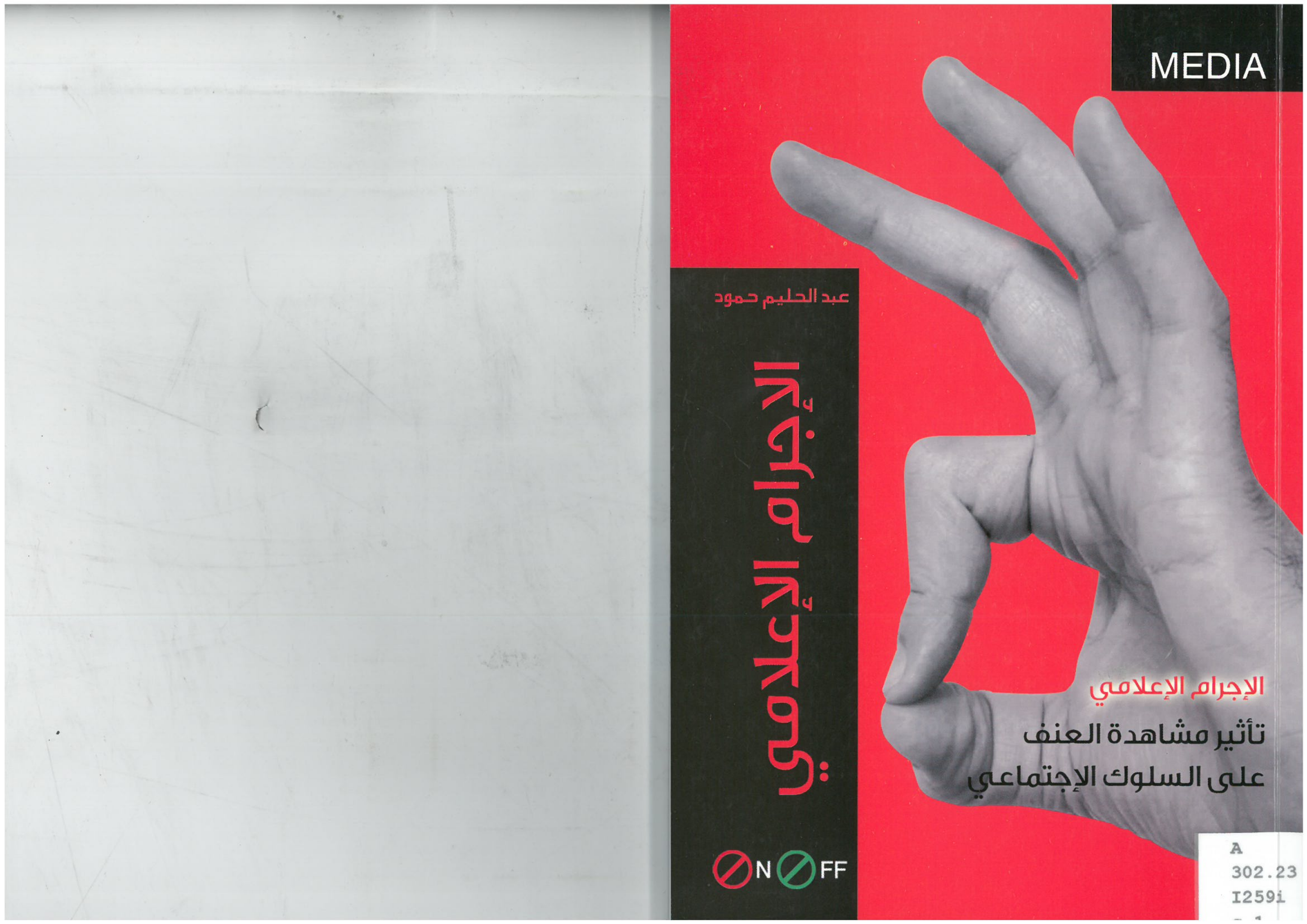

MEDIA
عبد الحليم حمود
الإجرام الإعلامي
الإجرام الإعلامي
تأثير مشاهدة العنف
على السلوك الإجتماعي
ON OFF

الإجرام الإعلامي

تأثير مشاهد العنف

على السلوك الاجتماعي

إعداد
مركز الدراسات والترجمة

إشراف
نجلاء أبو جهجه



الطبعة الأولى 2010 م

إعداد ونشر

ON OFF مركز الدراسات و الترجمة– إشراف عبدالحليم حمود.
هاتف: 477970 1 961+ بيروت ـ لبنان

توزيع

دار المؤلف Dar Al-Moualef
هاتف: 823720 1 961+ فاكس: 825815 1 961+
ص.ب: 13/5687 بيروت ـ لبنان

الكتاب

إن كثيراً من الباحثين، والمعلمين، وأولياء الأمور يعتقدون أن التلفزيون يؤثر في سلوكيات الناس، وهناك ـ على سبيل المثال ـ العديد من الدراسات التي خلُصت إلى نتائج تبين أثر التلفزيون في حفز السلوك العنيف لدى الأطفال. كما أن هناك دراسات كثيرة انتهى أصحابها إلى بيان كيف تؤثر برامج بذاتها في جعلنا نفكر أو نستجيب بطريقة معينة.

وفي الولايات المتحدة نفسها، حيث يعتبر التلفزيون أغزر تلفزيونات العالم عرضاً لمشاهد العنف، أكد المعهد الوطني للصحة العقلية وأكاديمية طب الأطفال الأمريكية وجمعية علماء النفس الأمريكيين أن العنف التلفازي يؤكد العدوانية لدى الأطفال. وجاء في الدراسة أنه بين عامي 1981 و1990 ازداد معدل توقيف القاصرين بنسبة 60٪ مقابل 5٪ لمن تجاوزوا سن الثامنة عشرة مما دفع المشرّعين في ولاية كاليفورنيا، نتيجة ارتفاع نسبة المراهقين بين مرتكبي جرائم القتل من 10٪ إلى 19٪ في العام 1992 وفي تسع ولايات أخرى، إلى التفكير في خفض السن التي ينبغي فيها محاكمة المراهق إلى 14 سنة بدلاً من 16 سنة.

أما في فرنسا، فقد أحصت مجلة «لو بوان» Le Point الأسبوعية

مشاهد العنف التي رآها المشاهدون خلال أسبوع واحد من شهر تشرين الأول لعام 1988 فبلغت: 670 جريمة قتل، 15 حالة اغتصاب، 848 مشاجرة، 419 تراشق بالرصاص أو انفجار، 14 حالة خطف أو سرقة، 32 حالة احتجاز رهائن و27 مشهد تعذيب. وهذا يمثل وسطياً، عند البث التلفزيوني الكامل 24 ساعة على 24 ساعة، اعتداءً عنيفاً كل خمس دقائق بالنسبة إلى مجمل القنوات. مع الإشارة إلى أنه، وفي هذا الجدول الدموي، لم تؤخذ بالحسبان مشاهد العنف النفسي أو اللفظي أو الإيحائي. وهذا يعني أن أطفالنا يتعرّضون وهم في أحضان الآباء إلى اعتداءات متكررة ومكثفة يومياً مما يجعل التلفزيون، بالنسبة لجمهوره وبخاصة الصغار، مصدر تحريض على العنف بشتى الأشكال والوسائل.

يقول عالم الاجتماع فرنان وتيه: إنه في مجتمعاتنا المعاصرة، يُعبر عن العنف بطقوس أصبحت أكثر تعقيداً، السباق على تحصيل الشهادات، والمطامع الشخصية، والاستهلاك التفاخري، والمنافسة الاقتصادية، والإبداع الفني، والفكاهة، والرياضة... وكل هذه الفعاليات تمارس ضمن مؤسسة خاصة لها قواعدها وتسلسلها الإداري: المدرسة، والشركة، والمركز التجاري.

ولكن هذه الممارسات التي أصبحت أكثر تعقيداً وتقنيناً تسبب اضطرابات مثل الشدة النفسية، وفعاليات أقل «شرعية» تظهر متحدية نظاماً اقتصادياً أو بيروقراطياً ساحقاً: الاستراتيجيات غير المؤذية الصغيرة (التغيب والخداع والغش)، و«الجريمة الاقتصادية» (سرقة الأشياء

المعروضة، وخداع شركات التأمين والغش الضريبي)، وتخريب النفائس، كل هذه المظاهر في زيادة واضحة بينما يميل العنف الجسدي (القتل، والاعتداء بالجرح والضرب) إلى الانخفاض في أوروبا رغم المخاوف المبالغ بها لبعض الأوساط الإعلامية (باستثناء المدن الكبيرة حيث زاد العنف الجسدي في العقود الأخيرة، ولكن دون الوصول إلى مستويات القرن الماضي).

وما يدعو للاستغراب هو الشعور الشخصي بعدم الأمان في الوقت الذي يزيد فيه الأمان فعلياً، إن العنف المادي والجسدي قد استُبدِل جزئياً بعنف خيالي رمزي يسمح باستمرارية الأسطورة المؤسِسَة (قتل قابيل لهابيل).

لكن ماذا عن وضع العنف والتقليد قبل اختراع التلفزيون؟ وللإجابة، يقول محمد عماد الدين إسماعيل: إن الأطفال، وقبل أن يخترع هذا الجهاز، كانوا يستقون النماذج التي يقلّدونها في ألعابهم من القصص التي كانت تحكى لهم أو تقرأ عليهم. والكثير من القصص سواء في الأدب الشعبي أو في الأدب الغربي يحتوي على العنف والعدوان كما أن هذه القصص مليئة بالخوف والفزع. ولكن هل العنف والعدوان اللذان يعرضان في التلفزيون أشد ضرراً على الأطفال مما كانت عليه تلك القصص؟ وللإجابة، يتابع كلامه بأن الأبحاث توحي بنعم. فالصور الحية كاملة الألوان والقريبة جداً من الواقع الذي تصوره شاشة التلفزيون هي قطعاً أشد تأثيراً بكثير من الكلمات.

بالطبع هناك ضوء في آخر النفق، والصورة ليست قاتمة تماماً، وثمة

وعود تبرُق، ووعي يومض ويضيء هنا وهناك. لكن الصورة بشكل عام، صورة «ثقافتنا المستعارة» المجافية للإبداع والمدعَّمة للاعتماد على الآخرين في عالم الصور والسلع، الصور المقدمة على هيئة سلع، والسلع المقدمة على هيئة صور، هي حالة جديرة ـ على نحو ملّح ـ بالتأمل والتنبيه والتحذير، خاصة أن رواد العنف والجريمة والفساد يزدادون عدداً وذكاءً.

على كل حال، فإن عالم الصورة، عالم حاشد بالمعاني والأبعاد والدلالات والاحتمالات، وهو عالم جدير أيضاً، بنظرة شاملة ومتعمقة.

ترتيب المشهد العنفي

أصل الرعب

الرعب؛ ذلك الشعور العارم الذي ينتاب الإنسان فإذا هو وقد تناثرت حواسه وذهبت كل مذهب. وإذا به وقد فقد كل ما كان قد سبق وأن ما حصّله من معارف وخبرات من شأنها أن تمنحه ولو بصيص من أمان وطمأنينة. وإذا هو وقد قطع ما بينه وبين أسس المنطق العقلي الذي يتشدق به وهو آمن مطمئن، فلا يعود هناك ما يمكن أن يمت للمنطق بسبب؛ فينطلق حينها الخيال من عقاله ويجوس في كل فضاء ويمارس لعبته العتيدة في تصوير المستحيلات والمخاوف التي تنشط من آبار سحيقة كنا نحسبها قد رُدمت ومُحيت فإذا بها فوارة لم تنضب ومليئة كعهدنا بها منذ آلاف السنين حينما لم يكن الإنسان البدائي قد اخترع المنطق بعد.

ويستجيب الجسد لنداء الوجدان الممزق؛ فإذا بالحلق وقد تبخرت رطوبته. وإذا بالعينين وقد فقدتا القدرة على التركيز والرؤية الواضحة. وإذا بالجلد وقد اقشعر وهزته تلك الرعدة الكهربية التي يزيدها سوءاً برودة سابحة في بحار من العرق. وإذا بالفرد وقد فقد القدرة على توجيه الأوامر إلى أعضائه الحركية؛ فالقدمان قد أصبحتا في ثقل الرصاص تجريان بأسلوب الحركة البطيئة واليدان متهافتتان ضعيفتان غير

قادرتين على الدفاع ولا على الهجوم. والقلب يمارس رقصته المجنونة التي لا تعترف بإيقاع محسوب.

والغريب أن الرعب حين يجتاح الإنسان اجتياحاً فإنه يصير عرضة لارتكاب أفعال متناقضة قد لا يمكن التنبؤ بها؛ فكثيراً ما ينتاب بعضاً مما كنا نظنهم شجعاناً فإذا بهم وقد استسلموا تماماً لمصدر رعبهم في حالة من الشلل التام دون أن يصدر عنهم أي رد فعل دفاعي، مما قد يفضي في كثير من الأحيان إلى فقدانهم الحياة تحت تأثير هذا الخطر الداهم. وأحياناً أخرى ينتاب الرعب بعضاً ممن نظن بهم جبناً فإذا بهم وقد أصابهم الرعب بحالة مؤقتة من الشراسة والقوة غير المنتظرة وإذا بهم مدافعين شرسين عن أنفسهم وعن ذويهم إلى درجة قيامهم بقتل من يفوقونهم قوة بدنية بمراحل.

والأغرب أن الإنسان كثيراً ما يسعى بنفسه إلى توليد الرعب ليصيب به نفسه والمحيطين به، بل ويتفنن فيه بعبقرية يحسده عليها أرباب الفن والإبداع وكأنه يسعى خلف لذة يستمتع بها كما يستمتع بلذاته الغريزية. ألا ترى معي ذلك التعبير المرتسم على وجوه الأطفال وقد تحلقوا حول جداتهم لسماع قصص الغيلان والعفاريت؟ ذلك التعبير المازج بين الدهشة والابتسام والمفاجأة... والرعب. ألا ترى كم الأفلام العالمية التي تقدم للناس قصص الرعب في مشارق الأرض ومغاربها إلى درجة أن أفلاماً منها بعينها قد صارت من علامات السينما الكلاسيكية وإلى درجة أن قصصاً منها بعينها يعاد إنتاجها في أفلام متعددة دون أن ينقص ذلك من شعبيتها وإقبال الناس عليها، بل يزيد منها ويضيف إليها غموضاً؟!

ألا ترى معي أن قصص وروايات الرعب والخوارق والعوالم السحرية من أكثر الروايات والقصص مبيعاً على المستوى العالمي وأن كتابها ومبدعيها يتفوقون شهرة وثروة على أساطين الرواية والشعر والقصة في العالم؟

ثم ها هي بيوت الرعب تتصدر قائمة الإيرادات بين الأقسام الخاصة في مدن الملاهي والمتنزهات... كل ذلك فقط من أجل حصول الناس على تلك اللذة المجهولة... لذة الشعور بالرعدة التي تسري كالكهرباء أسفل البشرة... لذة الرعب.

ولكن كيف بدأ الإنسان قصته مع عالم الرعب؟ وكيف تطورت فصول هذه القصة عبر تاريخ الحضارات والثقافات المختلفة؟ ولماذا نجد تشابهاً كبيراً بين كائنات الرعب والفزع وإجماعاً عالمياً على السمات العامة لها؟

يبدو أن الإجابة على السؤال الأخير بالذات يمكن أن تأتي من نظرية «الأنماط الأساسية» التي اقترحها عالم النفس الشهير «كارل يونج». فالأنماط الأساسية هي أشكال وأفكار أولية متضمنة في العالم الروحي / العقلي. وقد استخدم «كارل جوستاف يونج» Carl Gustave Jung (توفي عام 1961) هذا المفهوم لتمييز الرموز، الأشكال والصور المشتركة بين البشر، والتي من الممكن العثور عليها في الأحلام، كما توجد في الأساطير، القصص الخرافية... الخ. وقد أطلق عليها مصطلح «اللاشعور الجمعي» Collective Unconscious وأكد أن هذه الرموز، من

الممكن أن تقود الإنسان بواسطة وسائل بصرية إلى التفرس في الهياكل البنائية الخاصة بالخواطر العقلية.

وبتعبير أوضح فإن «يونج يرى» أن هناك أشكالاً ورموزاً بعينها تكون مسؤولة عن توليد مشاعر وأحاسيس بعينها لدى البشر على اختلاف ثقافاتهم وتنوعهم. وأن هذه الأشكال والرموز هي بمثابة ميراث فطري لدى كل البشر يشتركون فيه باعتباره (عقل باطن) كبير يضم كل البشر منذ آلاف السنين وأن دراسة وتحليل هذه الرموز من الممكن أن تقودنا إلى فهم الطريقة التي يتم بها خلق التصورات العقلية.

ولو طبقنا هذه النظرية على عالم الرعب وما يحويه من كائنات وأشكال تثير الفزع والهول في النفوس فسنجد أنها تقودنا إلى صفتين عامتين وأساسيتين لدى هذه الكائنات لا بد وأن تتميز بهما على الدوام ألا وهما (الغموض والتعقيد).

ولكي نفهم ذلك علينا أن نتصور الآتي: عندما يحاصر إنسان ما في حريق كبير فإنه ولا شك سيكون في قمة الخوف نتيجة التهديد بالموت حرقاً؛ إلا أنه يكون عندها واعياً تماماً بطبيعة الخطر المحيط به (النار) وبأقصى ما يمكن أن يلحق به من أذاها (الموت حرقاً أو التشويه). إلا أن الخوف هنا لا يكون ممزوجاً بذلك الغموض الذي يولد في النفس آلاف الأسئلة عن طبيعة كائن خرافي أو منزل يقال عنه إنه مسكون أو... الخ؛ ذلك الغموض الذي قد يخلع على الخوف العظيم أحياناً لمحة من لذة التشويق برغم الإحساس بالخطر المحدق.

وهذا الغموض تحديداً هو أساس ما يتمتع به أي كائن مرعب من قدرة على إثارة الرعب والفزع، بل إن حظه من الشهرة والشعبية يعود في غالب الأمر إلى هذا الغموض؛ فنحن لا نعلم على وجه اليقين ما هي طبيعة العفاريت وما هي حدود قدراتها تقريباً وما إذا كانت شريرة بالفطرة أو أن خيرها وشرها يتوقف على عوامل معينة... الخ وهو ما ينطبق أيضاً على كل كائنات الرعب في التراث العالمي. والغريب أن هذا الغموض يظل جاثماً طوال آلاف السنين برغم آلاف القصص والحكايات التي حكيت عن عالم هذه الكائنات وبرغم آلاف التجارب التي أجريت لكشف سرِّ هذه العوالم وبرغم آلاف المعالجات الفنية ـ قصصاً وأفلاماً ـ التي صيغت لتجسيدها.

موجة العنف:
مسؤولية الفرد أم المجتمع؟

بعد كل حادثة عنف، تتضارب أقوال المهتمين بتفسيرها، فمنهم من يحمل المتورط في أعمال عنف مسؤولية تورطه، معتقدين أنه مهيأ بطبعه ـ عضوياً ونفسياً ـ لهذا التورط. ومنهم من يحمل المجتمع ـ بمؤسساته التربوية والإعلامية والاقتصادية هذه المسؤولية، فإهدار القيم وغياب التنمية الشاملة ونشر ثقافة العنف والحف عليه (كما تفعل الأفلام) وراء تزايد أعمال العنف في العالم كله والعنف نوع من العدوان، إذ يشمل السلوك العدواني نمطين من الاستجابات[1]:

1 ـ استجابات عدوانية تتسم بدرجة من العنف تتفاوت بين سبِّ من تعاديه وإزهاق روحه.

2 ـ استجابات عدوانية غير عنيفة مثل تجاهل من نعاديه ـ بخسه ـ ترويج شائعات ضده.

يجمع بين النوعين تعمد إلحاق الأذى بشكل ضمني أو صريح، وقد

(1) عبد المنعم شحاتة، مجلة الدراسات الإعلامية، مصر.

يستهدف هذا الأذى الفرد نفسه كالانتحار، أو فرداً آخر كالضرب أو جماعة كما يفعل النازيون الجدد ضد الأتراك والصرب ضد مسلمي البوسنة والهندوس ضد مسلمي الهند. وقد يكون العنف جماهيرياً كأحداث «لوس أنجلوس» وأدكو وأبو كبير وانتفاضة 1977.

والعدوان هو أي سلوك يصدره فرد (أو جماعة) صوب آخر (أو آخرين) أو صوب ذاته، لفظياً كان أم مادياً، إيجابياً كان أم سلبياً مباشراً أم غير مباشر، وترتب عليه إلحاق أذى بدني أو نفسي بصورة متعمدة بالطرف الآخر. ويعد العنف شكلاً من أشكال العدوان لأنه سلوك يستهدف إلحاق الأذى بالآخرين أو ممتلكاتهم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: إذا تعرض شخصان لموقف تهديد، وكان رد فعلهما عدوانياً، فلماذا تختلف شدة العدوانية بينهما بحيث يكتفي أحدهما باعتداء ضمن وبشكل غير مباشر، على مصدر التهديد، في حين يتسم رد فعل الثاني بالعنف، وقد يصل به الأمر إلى قتل من هدده؟ لماذا هذا التفاوت في استجابتهما؟.

من المؤكد أن هناك عوامل معينة غير الاستثارة أو التعرض لموقف تهديد تعد محددات لاتسام الاستجابة بدرجة ما من العنف، وفي هذا الصدد توجد وجهتا نظر متعارضتين، إذ ترى إحداهما أن العنف ـ بدرجاته المتفاوتة، والقتل أحدها ـ سلوك فطري موروث، مؤكدة أساسه العضوي، في حين تنفي وجهة النظر الثانية ـ وبإصرار ـ ذلك، حيث لا يوجد ـ على حدِّ قول «بركوفيتز» أي دليل حافز نحو السلوك العدواني مقرر وراثياً، وأن العدوان الحيواني العفوي أمر نادر الحدوث نسبياً،

وإذا حدث فبسبب الخيبة والحرمان، مما يبرز دور العوامل البيئية (فيزيقية أو اجتماعية) كمحددات للعدوان. وهناك وجهة نظر ثالثة تنادي بالتفاعل بين كلا النوعين من المحددات الحيوية والبيئية، مقدمة أدلة هذا التفاعل.

وفيما يلي عرض لحجج كل وجهة منها[1]:

أولاً: المحددات الحيوية لسلوك القتل كسلوك عنيف:

لأن الكائنات الحية جميعها تشترك في إصدار استجابات تتسم بالعدوانية فقد اعتقد البعض أن للعدوان أساس عضوي بل وصل الأمر إلى اعتباره سلوكاً غريزياً، إذ يعتقد «فرويد» أن لدى الإنسان حافزاً فطرياً لتدمير الآخرين، ورغبة في الموت، وما الحرب ـ من وجهة نظره ـ إلا دليل صارخ على هذه الرغبة وذلك الحافز. ويرى «لورنز» Lorens أن لدى الإنسان حافز للعدوان ينشط تلقائياً، وبشكل فطري، مؤكداً أن المحددات الداخلية تلعب دوراً أساسياً في ظهور الاستجابة العدوانية، وذلك بالمقارنة بالمحددات البيئية التي ينحصر دورها فقط استثارة الفعل لا تحديده، كما يعتقد «لورنز» بوجود مركز لغريزة العدوان في الجهاز العصبي المركزي، وإن كانت البحوث الحديثة لم تقدم الأدلة على ذلك إلا أنها لا تنفي وجود أساس عضوي (حيوي) للعدوان إذ:

1 ـ هناك بحوث تشير إلى دور لعوامل وراثية Genetic كمحددات لبعض ضروب السلوك العدواني على الأقل، وأهم هذه العوامل هو

(1) المرجع السابق.

الصبغية (كروموزوم) ثلاثي الجنس لـ xxy) الذي يوجد لدى بعض الذكور، ويرتبط بسلوكهم العدواني، فقد وجدت «جاكوبز» Jacobs ومساعدوها أن نسبة من لديهم هذا الكروموزوم بين المساجين أعلى من نسبتهم في الجمهور العام، مما يوحي بأنه المسؤول عن سلوكهم الإجرامي العنيف، ويعارض «وتكن» Witkin ومساعدوه ذلك، مؤكدين أن الذين لديهم الصبغي ثلاثي الجنس لا يميلون للعدوان، وأن جرائمهم غالباً ما تكون ضد الممتلكات وليس ضد الأشخاص، ومن المحتمل أن إلصاق صفة العدوانية بهم ناتج عن تميزهم بالطول وانخفاض معدل ذكائهم، مما يجعلهم أقل تكليفاً ومما يشك في ارتباط سلوك العنف ـ والقتل ـ بوجود الصبغي ثلاثي الجنس، كون تكراره ضئيلاً ـ أقل من واحد في الألف واقتصاره على البيض فقط، إذ لا يظهر في سلالات أخرى، في حين تظهر جرائم العنف مما يؤكد أن دوره يتراجع أمام دور البيئة الأسرية.

2 ـ تشير البحوث التي قارنت بين مرتكبين لجرائم مختلفة إلى وجود علاقة بين نمط بنية الجسم ونوع الجريمة، وكان الطبيب الإيطالي «لومبرزو» أول من أشار إلى هذه النقطة، معتبراً المجرم يولد مجرماً، وأن له ملامح جسمية تميزه عن غيره. وحاول «هاتون» Haoton التحقق من ذلك حينما قارن بين سبعة عشر ألف سجين على مختلف مقاييس الجسم، وجد ارتباطاً بين قصار القامة الممتلئين وجرائم الجنس، وبين طوال القامة نحيلي البنية وجرائم القتل والسرقة. وكذلك وجد «جلويك» Glueck فروقاً في بنية الجسم بين الجانحين وغير الجانحين

المتماثلين في العمر والسلالة وبيئة السكن ومستوى الذكاء. وأمكن لـ«شلدون» Sheldon وزملائه وكذلك «ابز» EPPS و«بارنيل» Parnell استعادة هذه العلاقة حينما قارنوا بين الجانحين والجانحات من طلاب الجامعة وبين غيرهم، مما يؤكد وجود علاقة بين بنية الجسم ونوع الجريمة.

3 ـ كشفت التجارب التي أُجريت على الحيوانات عن فروق ذات دلالة في العناصر الكيميائية الحيوية للمخ بين الحيوانات القاتلة وغير القاتلة، وأن شدة العدوانية مرتبط بارتفاع نسبة هرمون الذكورة «اندروجين» في الدم، كما تؤكد البحوث التي أُجريت على الإنسان وجود تلك الفروق بالإضافة إلى فروق في إفرازات الغدد الصماء أو الهرمونات، وقد لوحظ أن المرأة تكون أكثر استعداداً للعنف أثناء الدورة الشهرية، حيث تعايش اختلالات هرمونية في تلك الأثناء، وما ينجم عنها من توتر وسرعة استثارة، فقد وجد «برتول» Bartol أن 62٪ من المسجونات قد ارتكبن جرائمهن العنيفة أثناء معايشتهن للدورة الشهرية (الطمث)، كما وجدت «سنج» Singh (1980) أن 6,61٪ من النساء ارتكبن جريمة القتل قبل الطمث مباشرة، 15٪ في منتصف فترته، و23٪ بعده، كذلك وجدت «دالتون» (1962) أن 60٪ من جرائم القتل التي ارتكبتها مسجونات فرنسا قد وقعت في الأسبوع السابق مباشرة للطمث، وأرجعت ذلك لانخفاض هرمون «البروجستيرون» وتركز «الاستروجين». مما يزيد القلق والتوتر والعدوان. والسؤال الذي يتبادر للذهن هو: أن كل الإناث تعايش هذا الخلل الهرموني. وبشكل دوري

لفترة طويلة من العمر، ومع ذلك لا يرتكبن جميعهن جرائم عنف؟ مما يؤكد وجود تفاعل بين هذا الاستعداد للعدوان الناتج عن خلل في إفرازات الهرمونات وبين عوامل أخرى يؤدي توفرها وتضافرها مع ذلك الخلل إلى تفجير العدوان الكامن.

4 ـ تشير البحوث الحديثة إلى وجود علاقة بين التنبيه الكهربائي لكل من: اللوزة ـ الجهاز الطرفي ـ المهاد (الهيبوثلاموس) والعنف، وكذلك توجد علاقة بين الصرع والعنف، فنسبة القتلى بين مرضى الصرع أعلى من نسبتهم بين المجموع العام، كما تشير نتائج رسم المخ لعينة من المرضى العقليين المتهمين بارتكاب جرائم، إلى وجود اضطراب في النشاط الكهربي للمخ حيث كشفت النتائج عن تغيرات في رسم المخ في صورة بطء النشاط المخي لدى 90٪ من الحالات، مما يؤكد وجود خلل حيوي لديهم.

5 ـ يُحدث تعاطي المخدرات خللاً في التوازن الحيوي (الهيوموستابس) لدم المتعاطي، وقد ثبت أن هناك علاقة بين التعاطي وجرائم العنف، فقد وجد سويف وزملاؤه فروقاً ذات دلالة إحصائية مرتفعة بين متعاطي الحشيش المزمنين وغير المتعاطين المناظرين لهم، وذلك في عدد مرات التورط في أفعال تتسم بالعنف اللفظي أو البدني، وتؤكد البحوث الأمريكية ذلك، إذ تكشف أن تعاطي الماريوانا أو الامفتيامينات أو عقاقير الهلوسة أو الكحوليات يزيد ـ وبشكل واضح ـ من احتمالات تورط الفرد في أعمال عنف بما فيها القتل.

ثانياً: المحددات البيئية لسلوك العنف بما فيه القتل:

يؤكد جون لويس أن البحوث الأنثروبولوجية لم تدعم المحددات العضوية للعنف مشيراً إلى هيمنة المحددات البيئية، والاجتماعية منها على وجه الخصوص، ويمكن استعراض أدلة هذه الهيمنة على النحو التالي[1]:

أ ـ الظروف الفيزيقية:

تشير الدراسات المعملية إلى أن الفرد يكون أكثر عدوانية إذا كان غير مستريح لظروف بيئية مثل:

1 ـ درجة حرارة المكان الذي يتواجد فيه، إذ يوجد ارتباط إيجابي بين درجة حرارة الجو والمعدل اليومي لجرائم القتل، فالإحصاءات الأمريكية تشير إلى حدوث 3،6 جريمة في المتوسط لكل يوم من الأيام الباردة، في مقابل 7،7 جريمة لكل يوم من الأيام الحارة ومرد ذلك ـ في رأي البعض ـ أن حرارة الجو تزيد من توتر الأعصاب، نتيجة لضيق التنفس، مما يضعف التحكم الإرادي للفرد، ويؤدي إلى إصداره ردود أفعال بدون تروٍ، وربما عنيفة، لأي منبه يتعرض له، كما أن حرارة الجو تدفع لخروج الأفراد من حجراتهم، والتجمع في أماكن متسعة شديدة التهوية، تيسر الاحتكاك بينهم وربما التشاحن الذي قد يكون مسؤولاً عن العنف، وليس حرارة الجو ويعتقد بعض الباحثين أن ارتفاع درجة الحرارة عامل مساعد ليس إلا، وأن الظروف البيئية المرتبطة

(1) المرجع السابق.

بالجو الحار هي المسؤولة عن تزايد معدلات الجرائم ضد الأشخاص، ومن هذه الظروف: كون زراعات الطقس الحار تتسم بالطول ما ييسر القنص والاختفاء، وكون ثقافة فرعية تشجع العنف (الثأر) تسود المناطق الحارة لمصر (وجه قبلي) بالمقارنة الأقل حرارة. كما تلعب عوامل مثل: نوع المجني عليه (ذكر أم أنثى) ونوع الجريمة (قتل عمداً أم خطأ) والحراك الاجتماعي، دوراً معدلاً لعلاقة جرائم القتل بارتفاع درجة حرارة الجو.

2 ـ الزحام، ويتفوق دوره كمحدد لجرائم القتل على دور ارتفاع درجة الحرارة لأن هذا الارتفاع يؤدي إلى زحام الأفراد في أماكن معينة ـ أسطح المنازل، الحدائق العامة، الشوارع... الخ ـ مما يرفع من كثافتها السكانية، وهناك أدلة على وجود علاقة طردية بين كثافة المكان سكانياً ومعدلات جرائم العنف، ومرجع هذه العلاقة إما أن الزحام يزيد من محاولات انتهاك حق الفرد في الحيز الشخصي، أو أن الزحام يضعف أواصر التضامن الاجتماعي، فلا يهتم كل فرد إلا بما ينفعه شخصياً، وتنتفي بالتالي الإدانة الشعبية للجريمة، مما يشبع شيوعها. وتدعم دراسة ممدوحة سلامة هذه العلاقة بين الزحام والعدوان، حيث وجدت علاقة دالة وقوية بين زيادة حجم الأسرة وعدوانية الأطفال، حيث زيادة عدد الأطفال تؤدي إلى زيادة فرص التنافس والاحتكاك بينهم، كما يزيد من فرص التعرض لنماذج ـ يقدمها الأشقاء ـ من أفعال العنف، بالإضافة إلى تناقص التفاعل الحميم بين الآباء والأبناء، مما يؤدي إلى إحساسهم بالإحباط. وتعتقد «شو» أن الشعور بالزحام يختلف

باختلاف نوع الأفراد، وأن هناك تفاعلاً بين النوع وكثافة المكان سكانياً وسعته وخصائصه الفيزيقية، ومن المحتمل أن سلوك العنف يرجع إلى هذا التفاعل إلى متغير الزحام بمفرده.

3 ـ تشير الإحصاءات الأمريكية إلى انتشار جرائم العنف في المدن الكبيرة بمعدل أكبر من انتشارها في كل من المدن الصغيرة والريف، ولأن المدن الكبيرة أكثر ضجيجاً وصخباً، فقد يعتقد البعض في وجود ارتباط بين الضوضاء والتورط في جريمة قتل، ولم يحظ هذا الارتباط بانتباه الباحثين، وكذلك لم تحظ ظروف بيئية أخرى باستثناء درجة الحرارة ـ بمثل هذا الانتباه.

البيئة الاجتماعية:

مما سبق يتضح أن الظروف البيئية تمارس تأثيرها في سلوك العنف من خلال ما يترتب على هذه الظروف من آثار حيوية واجتماعية كسرعة الاستثارة وغياب التفاؤل الحميم بين الأفراد والإحباط، مما يزيد من أهمية السياق الاجتماعي النفسي كمحدد لجرائم العنف، ويمكن الإشارة إلى علاقة هذه الجرائم بعدد من عناصر ذلك السياق كما يلي[1]:

1 ـ تشير الإحصاءات الأمريكية إلى أن جرائم العنف يقوم بها ذكور غالباً، ينتمون إلى الطبقة الدنيا أو المكانة الاقتصادية الاجتماعية المنخفضة، ويفسر «كابسواني» Kuppuswany ذلك بارتباط هذه المكانة بالإحباط المتكرر والحرمان والتعارض بين المتاح والمأمول، وأن

(1) المرجع السابق.

معايشة الفرد لهذا يجعله يشعر بحرمانه من حقه في حياة كريمة، مما يزيد من احتمالات إصداره سلوكاً عنيفاً، حتى ولو لم تدفع إليه عقبات داخلية أو خارجية، وتدعم الإحصاءات الأمريكية هذا التفسير، حيث تبين أنه فيما بين الأفراد منخفض المكانة الاقتصادية الاجتماعية، كان عدد مرتكبي جرائم العنف من السود ضعف عددهم من البيض، فيما يتساويان إذا كانوا ينتمون إلى الطبقة المتوسطة، وقد تلعب الثقافة الفرعية دورها الأساسي في ظهور هذا الفارق، وما زيادة جرائم العنف في الغرب الأمريكي بالمقارنة بالشمال إلا دليل على ذلك.

2 ـ وينفي «ويلسون» علاقة الجريمة في المجتمع الأمريكي بالفقر، ودليله أن جرائم القتل عام 1936 (أي بعد الكساد والكبير) كانت بمعدل 6،9 لكل ألف نسمة، وهي أقل من معدلها عام 1970 (عصر ازدهار الاقتصاد الأمريكي) الذي أصبح 9،4 لكل ألف، وكذلك ازدادت معدلات جرائم السرقة من 59،4 في الألف إلى 131 في الألف، مرد هذه الزيادة في رأيه هو ضعف وسائل الضبط الاجتماعي الناتج عن التغيرات الاجتماعية، وليس الفقر، وتؤيده «بروين» في ذلك، إذ تعتبر ارتباط جرائم القتل ارتباطاً سلبياً بمستوى التعليم أو المستوى الاقتصادي الاجتماعي وهماً، إذ تشيع جرائم القتل بين أفراد الطبقة الوسطى، وفي كل المستويات التعليمية والاقتصادية والاجتماعية بنفس الدرجة.

3 ـ وتؤكد نتائج البحوث وجود ارتباط قوي بين البيئة المنزلية السلبية (صراع الوالدين وخلافهم المستمر وعدوانهم المتبادل) وكون الأبناء قتلة عندما يكبرون، بل واعتمادهم أسلوب العنف في تنفيذ القتل

فبإجراء مقارنة بين القاتلات اللائي استخدمن السم والقاتلات اللائي استخدمن أساليب عنيفة، تبين أن أفراد الفئة الأخيرة قد عوملن بشكل متكرر - بقسوة، وخصوصاً في مرحلة الطفولة وتؤكد بحوث «لويس» Lewis وزملائه ذلك، فمعظم جرائم العنف يرتكبها أفراد، إما أهملوا، أو تعرضوا بشكل متكرر لمعاملة بدنية سيئة (كالضرب المبرح) في مرحلة الطفولة، كما أن 75٪ من الجانحين المتسمين بالعنف كانوا ضحايا اعتداء آبائهم عليهم أو اعتداء متبادل بين الوالدين، إذ يرتبط العنف المتبادل بين الآباء بعدوانية الأبناء، فالبحوث تظهر أن مشاهدة العنف المتبادل تجعل الفرد أكثر اعتماداً عليه كأسلوب لفضّ الخلاف مع الآخرين، وأن تأثير المشاهدة هذه يتفوق على تأثير سوء معاملة الآباء لأبنائهم، وعلى تأثير ضغوط الحياة ومصاعبها ويمكن تفسير ذلك بـ: إما أن الآباء يقدمون النموذج الذي يقتدي به الأبناء في تفاعلهم مع الآخرين مستقبلاً، أو أن الأبناء يشعرون بالإحباط والاضطهاد وتتولد لديهم مشاعر الخوف والتوتر، مما يجعلهم أقل تحكماً في سلوكهم الاندفاعي، أو أنهم يعتادون العنف وتصبح أفعاله مألوفة لهم.

4 - وتعد الألفة بأفعال العنف وهادياته عاملاً مهماً لتورط الفرد في جرائم القتل إذ تؤكد نتائج بحوث إثر رؤية السلاح أن مجرد كونه في متناول يد الفرد يستثير - أي السلاح - لديه أفعالاً عدوانية اندفاعية ويتوقف هذا على انفعال الفرد، ودلالة السلاح بالنسبة له، أي أن السلاح يلعب دور الهادي Cue (علامة) لفعل القتل وللعنف وهذا الدور يأتي نتيجة لخبرات تعلم سابقة، فوجود السلاح يزيد من احتمالات

إصدار الفرد الغاضب استجابة عنيفة، وذلك إذا تعلم ربط هذا السلاح بالعنف، وهكذا يصبح علامة أو منبهاً أولى لشبكة من التداعيات المعرفية الممهدة لارتكاب القتل والمبررة له.

المحددات النفسية لارتكاب الفرد جرائم القتل:

مما سبق يتضح أن المحددات البيئية لجرائم العنف، ومن بينها القتل تمارس دورها من خلال متغيرات نفسية، بعضها عمليات (كاكتساب الخبرة أو التعلم) وبعضها خصال مزاجية، وتقوم هذه المتغيرات بدور وسيطي بين وجهتي النظر السابقتين، أي المحددات الحيوية والبيئية لجرائم العنف بحيث يتكاملان عند تفسير تورط فرد بعينه في لحظة محددة في إحدى هذه الجرائم، ويلخص «سكوت» هذا التفسير بقوله: إنه لا توجد أدلة فسيولوجية لغريزة العدوان، وإن كان الإنسان يولد ولديه وسع Capacity معين للعدوان فالبعض استعدادهن للعدوان، محدود، والبعض الآخر استعدادهم أكبر، وتتولى الخبرات المتعلمة تعديله، أو على حدِّ قول «بروكوفيتز» يتعلم الإنسان الاستجابة بشكل عدواني إذا كان مهيأً فيسيولوجياً لذلك.

وهكذا، يقدم علم النفس تفسيراً متكاملاً لتورط فرد بعينه في جريمة عنف، وحجر الزاوية في تفسيره هو ربط العدوان بالإحباط، أو بتعرض الفرد لأحداث غير سارة عموماً، وكان «جون دولارد - وزملاؤه» «دوب» و«ميللر» - أول من أشاروا إلى هذه العلاقة سنة 1939، معتبرين أن أي إحباط لا بدّ وأن يؤدي إلى عدوان، وأن أي استجابة عدوانية لا بدّ وأن يرجع سببها إلى خبرة سابقة محبطة وينتج

الإحباط إذا فشل الفرد في أداء مهمة ما حيث يتوقع نجاحاً، أو إذا خسر مكافأة ينتظر الحصول عليها، أو تعرض لإهانة، ويعتقد الباحثون أن الفشل حيث النجاح متوقع، أكثر مصادر الإحباط إثارة لاستجابات عنيفة ويعتقد «بروكوفيتز» أن الإحباط جزء من ظاهرة أعم هي الأحداث غير السارة وما تنتجه من خبرات سلبية، فهي المصدر الأساس لسرعة الاستثارة والهياج والغضب، وما يصاحبها من أفعال عنف، فالإحباط خبرة مؤلمة تستثير مشاعر سلبية وأفعال مندفعة، وتشير البحوث إلى أن الألم البدني حدث غير سار كذلك يولد بالتالي سلوكاً عدوانياً، كما أن سماع الفرد لآراء تعارض رأيه، خبرة غير سارة أيضاً، تزيد من عدائه لصاحب الرأي المعارض، وفي ضوء ذلك يمكن تفسير العنف المتبادل أو الاغتيالات بين أعضاء جماعات سياسية أو دينية أو عرقية أو. . . الخ مختلفة، كما يمكن تفسير الارتباط المشار إليه آنفاً بين جرائم العنف وكل من: ظروف بيئية طبيعية غير مريحة كارتفاع درجة حرارة الجو وارتفاع كثافة المكان سكانياً وانخفاض المكانة الاقتصادية والاجتماعية أو الفقر.

وتشكك البيانات الحديثة في عمومية علاقة العدوان بالإحباط أو الخبرة المؤلمة، فليس كل عدوان ناتج عن إحباط، ودليل ذلك ارتكاب الجريمة المنظمة بواسطة قاتل أجير، كما أن رد كل فرد لموقف محبط لا يكون عنفاً دائماً، فقد يكون اعتماداً على المخدرات لدى البعض، أو انسحاباً من الموقف لدى آخرين، أو شكوى من أعراض نفسجسمية لدى فريق ثالث، والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما هي العوامل التي

تجعل الفرد يستجيب لموقف محبط بارتكاب جريمة قتل دون أن يلجأ لإحدى الاستجابات سالفة الذكر.

تتمثل الإجابة في كون التعرض لخبرة مؤلمة موقف مشقة تستثير خوف الفرد، والخوف يتبعه غضب والأشياء المخيفة مصدر تهديد يؤدي إلى زيادة التوتر والاستنفار العصبي، وتشكل مشاعر الخوف والغضب والتوتر مع الخبرة المؤلمة ومترتباتها اتجاهات عدائية نحو المتسبب في كل هذا، أي مصدر التهديد وقد يترجم الفرد هذه الاتجاهات إلى فعل عنيف يصل إلى درجة القتل، وقد لا يترجمها، إذ يتوقف ذلك على توفر الشروط التالية:

أ ـ الربط بين سلوك العنف ومصدر المشقة من خلال عمليات تعلم، إذ تبين أن[1]:

1 ـ الأطفال يتعلمون العدوان من خلال مشاهدة اعتداء الآخرين الأكبر سناً، فقد قارن «باندورا» Bandura وزملاؤه بين خمس مجموعات من الأطفال تشاهد المجموعة الأولى راشداً يهاجم بعنف لعبة بلاستيكية تسمى Bobo doll لمدة عشر دقائق وتشاهد المجموعة الثانية فيلماً للموقف الذي شاهدته المجموعة الأولى، أما المجموعة الثالثة فتشاهد فيلماً كرتونياً يعبر عن نفس الموقف، وتشاهد المجموعة الرابعة راشداً يوبخ ـ وبدون عنف ـ الدمية، أما المجموعة الخامسة، فلا تشاهد أي نموذج لسلوك عدواني، أي مجموعة ضابطة. وبعد المشاهدة، مرَّ كل

(1) المرجع السابق.

طفل من المجموعات الخمس بموقف محبط، ثم ترك بمفرده بالحجرة مع الدمية البلاستيكية ومسدس أسود، ولعب أخرى لا ترتبط بالعدوان، وذلك لمدة عشرين دقيقة، مع ملاحظة سلوكه. وتكشف الملاحظة أن أفراد المجموعات الثلاث الأولى قلدت وبشكل تام، بما في ذلك الألفاظ التي استخدمت والإيماءات التي صدرت، السلوك العدواني الذي أصدره الراشد، ولا توجد فروق بينهم، بمعنى أنه بغض النظر عن كون النموذج حياً أو مصوراً في فيلم أو يعبر عنه فيلم كارتون، فقد قلده الأطفال، بينما لم يصدر أفراد المجموعتين الرابعة والخامسة أي سلوك عنيف مع أنهم أحبطوا كذلك، مما يؤكد أن العدوان سلوك متعلم. ويوضح «تيرنر» Turner وآخرون أن عمليات اجتماعية تحدد ما إذا كان أشخاص بعينهم ينمون العدوان عبر خبرات مباشرة أو غير مباشرة كأسلوب معتاد لمواجهة أحداث الحياة.

2 ـ وتكشف التجارب التي أُجريت مؤخراً ـ عرض لها «بارون» وزملاؤه أن العدوان الواقعي الحي أكثر تأثيراً من العدوان المصور على شرائط الفيديو كما في الأخبار المتلفزة والأفلام الدرامية، وأن مصدر العدوان الأكثر جاذبية والذي يدرك المتلقي أنه يشبهه، أكثر تأثيراً، أي يقلده بدرجة أكبر، بالمقارنة بمصدر أقل شبهاً بالمتلقي أو أقل جاذبية. ويتمثل هذا التأثير في اكتساب سيناريو الفعل العدواني، أي تتابع خطواته، وتعلم فنونه، والتعرف على مترتباته ومزاياه، واكتساب الثقة بمعرفة مواطن قوة الفرد ومواطن ضعف الآخر، ويضيف «بركوفينز» أن اكتساب هذا السيناريو Script يمكن الفرد من تحديد أي المهددات

تستوجب استجابة عدوانية، وأيها لا يتطلب ذلك، وإلى أي مدى يؤدي سلوكه العدواني إلى إبعاد مصدر الإحباط أو التهديد والتغلب عليه.

3 ـ ويتم هذا الاكتساب من خلال مشاهدة أفراد يسلكون بشكل عدواني، وهكذا يمكن فهم ارتباط سوء المعاملة الوالدية بعدوانية الأطفال، وبزيادة احتمالات تورطهم في جرائم قتل مستقبلاً، أي وهم أكبر سناً، كذلك يمكن فهم كون ضحية محاولة القتل يصبح قاتلاً فيما بعد، وفهم ـ أيضاً ـ كون أهل المدن الكبيرة أكثر تورطاً في جرائم القتل بالمقارنة بأهل المدن الصغيرة أو الريف، لأنهم أكثر تعرضاً لخبرات عدوانية، سواء بشكل مباشر كرؤية أشخاص عدوانيين، أو بشكل غير مباشر، لأنهم أكثر اقتناء لأجهزة السينما والتلفزيون، التي تقدم وبشكل منظم وقائع العنف.

الأبعاد النفسية في الجريمة والجنوح:

أهمية الجانب النفسي في حياة الإنسان وفي سلوكه:

للجانب أو البعد النفسي أهمية كبيرة في حياة الإنسان، ونموه، وفي تكوين شخصيته، وفي سلوكه، سواء أكان هذا السلوك سوياً متكيفاً ومتمشياً مع قيم المجتمع وقوانينه ونظمه ومعاييره أم كان سلوكاً شاذاً أو غريباً أو خارجاً على القانون Antisocial Behavior وكذلك العرف والعادات والتقاليد والنظم والقواعد المرعية في حياة المجتمع. ذلك لأن الإنسان وحدة نفسية جسمية اجتماعية أخلاقية روحية متكاملة Integrated Unit ومتفاعلة، حيث يؤثر كل عنصر من عناصر هذا الكل

في العناصر الأخرى ويتأثر بها كالذكاء والطموح مثلاً، ولذلك يقال، بحق، إن سلوك الإنسان، سواء أكان هذا السلوك عقلياً أم نفسياً أم جسمياً، يصدر عن الإنسان بكليته أو في عموميته، المكون من الجسم والنفس معاً Moans Whole. ولذلك تلعب العوامل النفسية دوراً رئيسياً في حياة الإنسان وفي سلوكه، حيث يتأثر هذا السلوك بما يتمتع به الفرد من الذكاء العام والقدرات الخاصة والاستعدادات والميول والدوافع الشعورية واللاشعورية واتجاهاته وعقائده وفلسفاته العقلية وأسلوبه في الحياة وسمات شخصيته. يتأثر سلوك الإنسان، بما في ذلك سلوكه المنحرف أو سلوكه الإجرامي بقواه العقلية وما تمتاز به من القوة أو الضعف والتخلف وبما يعمل في نفسه من الدوافع والنزعات الشعورية واللاشعورية والانفعالات ولذلك يقال بحق، إن الإنسان ابن البيئة والوراثة معاً Heredity And Environment، بمعنى أن المحصلة النهائية لتفاعل Interaction مجموعة العوامل البيئية ومجموعة العوامل الوراثية[1].

وتتدخل العوامل النفسية والعقلية في السلوك الإجرامي والانحرافي في كثير من النواحي والأبعاد، ابتداء من التفكير في الجريمة والتخطيط لها، وتنفيذها ومحاولة الهروب من تبعاتها وإخفاء معالمها والتهرب من المسؤولية الجنائية. Criminal Responsibility. الإنسان في كل المراحل

(1) عبد الرحمن محمد العيسوي، سيكولوجية الإرهابي، مكتبة الحلبي، بيروت 2005، ص259.

المكونة للجريمة تحركه وتؤثر فيه عوامل ودوافع وقوى نفسية يضاف إلى ذلك أن النظريات التي وضعت لتفسير الجريمة تأثرت بالأبعاد النفسية والدراسات النفسية ومنجزاتها وخاصة نظرية التحليل النفسي Psychoanalysis وعلاوة على ذلك تتأثر عمليات التحقيق وتقديم الأدلة وسماع الشهود والمحاكمات وعمليات العلاج وإعادة تأهيل المجرمين بالعوامل النفسية[1].

الجريمة ودوافعها وشخصية مرتكبيها[2]:

تحتل العوامل النفسية مكاناً كبيراً في مبحث السببية في مجال الجريمة والانحراف Crime And Delinquency، فهناك كثير من العلماء الذين يرجعون الجريمة إلى أسباب نفسية ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

1 ـ الجرائم الناجمة عن حالة نفسية لا شعورية بحتة هي هوس إضرام أو إشعال النيران Pyromania، حيث يجد الفرد لذة في إشعال النيران ويجد نفسه مساقاً قهراً لإشعال النيران.

2 ـ الهوس أو الولع الشديد اللاشعوري بالسرقة Kleptomania أي السرقة القهرية Compulsive Theft.

3 ـ جرائم هتك العرض والاغتصاب Rape.

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق، ص259 ـ 263.

4 ـ جرائم اللواط أو الجنسية المثلية Homosexuality .

5 ـ جرائم زنى الأقارب أي ممارسة الجنس Incest مع إحدى طبقات المحارم، كالجنس بين الإخوة والأخوات.

6 ـ الجرائم الناجمة عن نزعة السادية Sadism أي استدرار اللذة الجنسية من إنزال الألم بالطرف الآخر أو اللذة بصورة عامة من إيذاء الناس وقد يصل هذا الانحراف إلى حدِّ قتل الضحية أو السجل أو تعذيب الفريسة.

7 ـ جرائم الاعتداء الجنسي على الأطفال الناجمة عن انحراف جنسي هو الهيام بالأطفال Pedophilia .

8 ـ جرائم السرقة الناجمة عن الشذوذ الجنسي المعروف باسم حب الأثر أو الفتشية Fetishism، حيث يدفع هذا الانحراف المريض إلى سرقة متعلقات النساء وخاصة ملابسهن الداخلية والأحذية والفراء وما إلى ذلك جلباً للذة الجنسية لما ترمز إليه هذه الأشياء.

9 ـ جرائم الاعتداء على الذات وإيذائها ومن أظهرها جريمة الانتحار أو قتل النفس.

10 ـ الجرائم الناجمة عن الولع الشديد بالجنس أو هوس الجنس Sex Mania .

11 ـ جرائم كشف العورة أو الاستعراء في الطرق العامة وجرح حياء الناس Exhibitionism حيث يجد الفرد لذة في عرض أعضائه التناسلية للغير.

12 ـ جرائم الاعتداء على الحيوانات جنسياً أو مجامعة الحيوانات من جراء الانحراف المعروف باسم Bestiality Zoo Philia .

13 ـ جرائم نبش القبور للبحث عن جثث النساء الموتى حديثاً لمجامعة الجثة في القبر للأشخاص الذين يخشون الفشل من مجامعة الأحياء.

14 ـ العدوان المرتد على الذات من جراء نزعة الماسوشية Masochism أي استدراء اللذة الجنسية من تلقي الألم والأذى والإهانة والاحتقار.

15 ـ الجرائم التي يرتكبها الأطفال والصغار Juvenile Delinquency .

16 ـ الجرائم الناجمة عن الإصابة بهوس القتل Homicidal Mania وتسمى أيضاً Dacno Mania .

17 ـ جرائم الدعارة أو الاتجار الجنسي Prostitution .

18 ـ جرائم التلصص الجنسي الناجمة عن الإصابة بالانحراف الجنسي المعروف باسم الفيروس ترم أي استدرار Voyeurism اللذة الجنسية من رؤية أو سماع الآخرين وهم في حالة جماع جنسي وهو الانحراف الذي ينتشر بين خفر القرى الليليين.

19 ـ الجرائم الناتجة عن الشراهة الجنسية Satyriasis والإفراط في ذلك.

20 ـ الجرائم الناجمة عن خضوع الإنسان لنوع من القهر الداخلي Compulsion وهي حالة يجد الفرد نفسه مساقاً للقيام بأعمال رغم إرادته ولا يستطيع الإمساك عنها أو كفها أو مقاومتها.

21 ـ الجرائم التي قد ترتكب والإنسان في حالة المشي أثناء النوم Sleep Walking

22 ـ الجرائم التي يرتكبها الإنسان وهو خاضع لدرجة شديدة من الإيحاء.

23 ـ الجرائم التي قد يرتكبها الإنسان بعد التعرض لعمليات مكثفة من غسيل المخ «الدماغ» Brain Washing

24 ـ الجرائم الجنسية الناجمة عن البرود الجنسي Sex Frigidity.

25 ـ الجرائم التي يرتكبها أصحاب النزعات العدوانية الفاشية أو النازية والدكتاتورية ودعاة الحروب ومصاصي الدماء ومن ذلك تعذيب الأسرى وقتلهم.

26 ـ الجرائم الناجمة عن ضعف اتجاه الامتثال لقيم المجتمع Conformity أو كراهية المجتمع ونظمه.

27 ـ الجرائم المرتبطة بالانحراف النفسي أو العقلي المعروف باسم السيكوباتية Psychopathy وهي حالات تمتاز بضعف الضمير الخلقي وممارسة السلوك المضاد للمجتمع والصدام مع القانون والرغبة في الانتقام والكذب والنصب والاحتيال والغش والخداع والنفاق والرياء والابتزاز وعدم الإحساس بلوم الضمير، وعدم الاستفادة من الخبرات السابقة والعودة للجريمة.

28 ـ الجرائم الناجمة عن الإصابة بأي من الذهانات العقلية أي الأمراض العقلية ومن أظهرها جنون الاضطهاد «البارانويا» حال مجرم فندق سميراميس بالقاهرة في عام 1993م.

29 ـ الجرائم الناجمة عن المعاناة من الضعف العقلي والتخلف العقلي وخاصة جرائم السرقة والنشل والتشرد والدعارة، وترويج المخدرات Mental Retardation And Mental Deficiency.

30 ـ الجرائم الناجمة عن إدمان الخمور أو هوس الخمر Dipsomania وكذلك المخدرات وما تسببه من تشويش لذهن الإنسان وخلط قد يؤديان إلى الجريمة.

31 ـ الجرائم التي تتدخل فيها مشاعر نفسية سالبة مثل مشاعر الكره والبغض والغيرة والغل والحسد والجشع والطمع والحقد والانتقام والإحباط والحرمان والأخذ بالثأر والشعور بالظلم والاضطهاد والاستبداد والقسوة والحرمان المادي والمعنوي والعاطفي، وعن الشعور بمرارة الطلاق والانفصال وتحطيم الأسرة.

32 ـ الجرائم التي تعتمد على توفر قدر كبير من الذكاء من ذلك جرائم النصب والاحتيال والجاسوسية والتزوير والتزييف، والجرائم السياسية والمذهبية والجرائم الكبرى التي تحتاج إلى درجة كبيرة من التخطيط والأعداد.

33 ـ جرائم الدفاع عن العرض أو الشرف.

34 ـ التأثير النفسي لأقران السوء وعدم توفر القدوة الحسنة.

35 ـ جرائم الفشل في الحب.

36 ـ السلوك العدواني الناجم عن غريزة العدوان أو الموت Death Instinct.

جرائم العنف

وتلعب المشروبات الكحولية؛ والعقاقير الأخرى بدرجة أقل؛ دوراً هاماً في جرائم العنف؛ فارتفاع نسبة مرتكبي جرائم العنف تحت تأثير الكحول تؤكد أن التسمم الكحولي في حدِّ ذاته غالباً ما يشكل حالة خطيرة، وتكشف الإحصائيات أنه في أغلب جرائم القتل يكون أحد المتورطين في حالة تسمم كحولي، ويلي ذلك في الجرائم ذات العلاقة الوثيقة بالكحول حالات الاعتداء والضرب العنيف، ويبدو أن العلاقة بين سوء استعمال الكحول والجريمة تكون قوية خصوصاً بين صغار السن حيث ينتج عن استخدام الكحول عدوان بلا شعور وبلا هدف يسبب ضرراً وتدميراً[1].

وربما تكون وسائل الإعلام عاملاً شرطياً في السلوك العنيف، وتدور مناقشة العلاقة بين وسائل الإعلام والجريمة منذ سنوات طويلة، فالإعلام وخاصة التلفزيون له تأثير قوي على مجال عريض من القيم والمعايير وأنماط تصرفات وأفعال الناس، لدرجة أن هناك ثقافة معينة يشكّلها الإعلام، وربما نلاحظ أن بعض وسائل الإعلام تعيش على

(1) غسان رباح، ظاهرة الإجرام في حرب السنتين، دار المسيرة، بيروت 1979، ص74 ـ 76.

وصف العنف بدقة في أكثر أشكاله دموية إما للترفيه أو خلال نشرات الأخبار.

وتدل الأبحاث الحديثة على أن بعض الافتراضات السابقة عن أثر نقل صور العنف عن طريق الإعلام على سلوك الإنسان ليست بالضرورة صادقة. وعليه فإن النظرية المعروفة «بنظرية التنفيس» Catharsis theory أو التصريف التي تعتمد على وجهة النظر القائلة إن الميول العدوانية تقل عندما تمارس على هيئة تمثيل خلال وسائل الإعلام لم يعد لها من يساندها. وكذلك فإن مشاهدة العنف المصور في وسائل الإعلام لا تؤدي مباشرة إلى تقليده أو القيام به. ولكن رد فعل الفرد المشاهد يعتمد على عدة عوامل متعلقة بصفة خاصة بالأسرة والبيئة. فالتأثير الإيجابي للمنزل والأقران يقاوم عادة سلبيات مشاهدة العنف من خلال وسائل الإعلام. ولكن الواضح أن بعض الأفراد خصوصاً الأحداث يتأثرون سلبياً من خلال وسائل الإعلام تحت ظروف معينة خصوصاً على المدى الطويل فتتبلد أحاسيسهم، وقد يؤدي هذا إلى استعداد أكثر لقبول العنف كوسيلة استجابة لمواقف الصراع أو للممارسة الفعلية للعنف؛ هذا بالإضافة إلى أن وسائل الإعلام بنقلها صور حياة الرفاهية تخلق رغبة في الوصول إلى هذه المستويات إن لم يكن بطرق مشروعة فبطرق غير مشروعة؛ ولكن هناك مسافة بعيدة بين الرغبة في تحقيق الرفاهية وبين اتخاذ إجراءات غير مشروعة للوصول إليها؛ فهذه الإجراءات بدورها تعتمد على عوامل عدة.

وإذا كانت وسائل الإعلام لها القدرة على إحداث تأثير سلبي على

الأفراد بالإكثار من تعرضهم لاحتمالات العنف، فلا بد أن يكون من الممكن عكس هذا التأثير باستعمال وسائل الإعلام لتعليم العامة وسائل الاستجابة المقبولة اجتماعياً لمواقف الصراع، ولتحقيق هذا الهدف فإنه يتحتم أن تبادر الحكومات والمؤسسات الاجتماعية إلى اقتراح توجيهات في مجال التعليم العام.

والواقع أن ثمة نوعاً خاصاً من العنف أصبحت له دلالة عالمية وعلى الصعيد الدولي.

فبالرغم من انتشار العنف في تاريخ العالم فإن الزيادة الحديثة في هذا النوع من العنف تستحث الحاجة إلى البحث والتحري واتخاذ إجراء دولي، وتتأكد هذه الحاجة نظراً للزيادة في تعرض المجتمع الصناعي واحتمال التعرض لخطر الأسلحة الجديدة المدمرة بما في ذلك احتمال السرقة الدولية للمواد الذرية والتعرض للابتزاز.

الإعلام والجريمة

المشاهدة بين الهواية والاحتراف

الناس من حيث استماعهم إلى نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزيونية، فئتان: فئة تستمع إلى الأخبار ليل نهار من أجل اكتساب ثقافة إعلامية تستخدمها في أعمالها ووظائفها اليومية، وفئة لا تستمع إلى الأخبار إلا عرضاً وبين وقت وآخر.

وفئتا المستمعين للنشرات الإخبارية، أنّى توجهت مؤشرات راديوهاتهم، أو أطباق تلفزيوناتهم، تشتركان في شيء واحد: أنباء الكوارث والأحابيل السياسية ومآسي شعوب العالم، تحتل حيزاً هائلاً من موادهم المسموعة والمرئية.

فإذا كان الإنسان حساساً رقيق المشاعر وكان عمله يتطلب منه بل ويحتم عليه دوام الاستماع إرضاء «للزبائن» المتعطشين للأخبار، فإن صبره كثيراً ما ينفد وهو يشاهد المرة تلو المرة مناظر الانهيارات وكوارث القطارات والطائرات ومشاهد الفيضانات والزلازل، وكثيراً ما تتوتر أعصابه ويدق مدى احتماله، فتضطرب دقات قلبه وتتسارع أنفاسه وتغدو ضحلة منهكة لصحته.

هذه المشكلة عالمية الأبعاد. وقد اقتضت في كثير من الأحيان، قيام

أحد الكتّاب بتأليف كتاب يعالج هذه المشكلة ويقترح الحلول لها رأفة بالأحوال النفسية والصحية والعقلية لأصحاب المشاعر الإنسانية الرقيقة.

أحد أولئك الكتّاب الدكتور أندرو وايل، الطبيب الصحي والطب البديل في الولايات المتحدة، الذي أصدر مؤخراً كتاباً في هذا المعنى كان جزءاً من خطة شاملة لتحسين الصحة عن غير طريق العقاقير.

يقترح الدكتور وايل في كتابه «أخذ إجازة» يمتنع الإنسان فيها عن الاستماع إلى نشرات الأخبار مؤقتاً ولمدة تقصر حتى تبلغ يوماً واحداً في الأسبوع، أو تطول حتى تبلغ أسبوعاً. وقد كان غرضه من وراء ذلك هو أن يقيس الشخص المعني أثناء هذه الإجازة الإخبارية، مقدار تأثر صحته العامة بسماع الأنباء السيئة ودورها في إضافة عوامل الشدة والتوتر إلى حياته.

قد تبدو هذه الفكرة في أول الأمر ساذجة وغير قابلة للتطبيق. وقد يتساءل أحد الناس قائلاً: كيف يجوز للإنسان أن يضرب صفحاً عن الأخبار؟ وكيف يمكن تصنيفه، لو امتنع عنها، بأنه إنسان واسع الاضطلاع؟

ولكن الواقع هو أن وجودنا ذاته في القرن العشرين، هو سبب كافٍ لأن يجعل الإنسان يحجم عن التشرب في كل لحظة من لحظات حياته، بأنباء المآسي لحظة وقوعها تقريباً بفضل وسائل الإعلام التي لم تعد تعترف بالأبعاد، بل تنقل النبأ بمثل لمح البصر ولو حدث على بعد عشرات الآلاف من الأميال!

ولقد طوّر الباحثون في السنوات الأخيرة فهماً أفضل للكيفية التي تؤثر بها الأخبار على إحساس الإنسان بالعافية، وكانت النتائج التي توصلوا إليها هي أن اخذ الإنسان «إجازات» بشكل منتظم، عن الأخبار، يمكن اعتباره إضافة ممتازة إلى رصيد الإنسان من الأساليب والطرق الكفيلة بإبعاد الشدة والضغط العاطفي عنه.

الأرقام التوضيحية

هذا الكلام ليس ضرباً من الشطحات العاطفية، وإنما هو مسند إلى أرقام مقتبسة من نتائج أبحاث هيئة مخصصة لبحث هذا الموضوع: «مركز الشؤون العامة والإعلامية». فقد تبين أن التغطية الإخبارية في الشبكات الإعلامية، لحوادث الإجرام قد تضاعفت ثلاث مرات خلال النصف الأول من هذا العقد. وحتى الأخبار الاقتصادية فإنها أقل جلباً لاهتمام المستمعين للنواحي الإيجابية، منها للنواحي السلبية.

وقد وصف أحد المراقبين هذه الحالة بقوله: إنه إذا كانت أفكار الإنسان عن العالم مستقاة في معظمها من أنباء الشاشة الصغيرة، فإن الكرة الأرضية يمكن أن تبدو أشد قتامة وسواداً مما هي عليه.

والواقع أن الإسراف في التعرض لهذه السوداوية وتلك الكآبة يمكن أن يصيّر الحياة نفسها كئيبة قاحلة. وقد أجرى الباحثون البريطانيون في جامعة ساسيكس دراسة لمعرفة تأثير البرامج الإخبارية على الصحة، فشكلوا ثلاث جماعات مستقلة عن بعضها البعض، وكلفوا كلاً منها بالاستماع إلى ثلاثة أنواع من الأخبار: تفاؤلية أو محايدة أو سلبية. وقد

كانت النتائج التي تم التوصل إليها من هذه الدراسة أن الأشخاص الذين اختصوا بمشاهدة البرامج المثيرة للتشاؤم، لم يتحولوا فقط إلى أشخاص اشد حزناً وأكثر قلقاً حول مستقبل العالم، وإنما صاروا أيضاً أكثر إظهاراً لعواطف القلق الشخصية في نفوسهم بصورة مبالغ فيها إلى أقصى الحدود.

وأحد الأسباب لذلك هو أن القصص والبرامج التي اختيرت لأولئك الأشخاص، والطريقة التي عُرضت بها، يجعلان الإنسان أكثر شعوراً بالعجز.

فمن المعروف عند الباحثين أن وجود شعور عند الإنسان بأنه قادر على التحكم بأمور العالم الذي يعيش فيه، هو شعر طيب يؤثر تأثيراً إيجابياً على صحة الإنسان، أما شعوره بالعجز وعدم القدرة على فعل شيء، فإنه يزيد من قابليته للاكتئاب وإصابته بالمرض. وقد جاء في أحد التحليلات حول هذا الموضوع أن 71٪ من مدد الأخبار التي تبثها شبكات الأخبار، مكرسة لبرامج تكون فيها الشخصيات المركزية في البرنامج قليلة التحكم في مصائرها أو عديمة التحكم بها.

وكما يقول كريستوفر باترسون أحد أساتذة علم النفس بجامعة ميشيغان الأميركية، فإن النشرات الإخبارية المسائية تبث أخباراً تتحدث عن وقوع أمور سيئة، وهي أخبار تقع على المستمع كيفما اتفق وبدون ضابط، ومنها يحس المستمع بعجزه عن فعل أي شيء!

فصائل العنف

تركز الجدال بين العدوان الطبيعي والمكتسب مع بداية السبعينيات من القرن العشرين في كتاب العنف والدماغ لفيرنون مارك Vernon Mark وفرانك إيرفين Frank Ervin، الذي دعا إلى فحص اجتماعي قسري لـ«عتبات العنف». يجري تحديد أولئك الذين لم يجتازوا الاختبار، ويُمنعون من إيقاع «أذى» في المجتمع. كانت الجراحة النفسية أو ما يُعرف «بالجراحة الفصية» أحد أساليب المنع، حسبما جرى تصويرها في رواية كين كيسي Ken Kesey طار شخص فوق عش الوقواق».

في كتاب العنف والدماغ يُعبّر بوضوح عن رؤية عضوية للاختلال الوظيفي العقلي بلغة الدماغ «المشدود» كأداة سلوك. إن «أي فعل أو حالة وجود (أي السلوك أو التفكير) هو انعكاس لنمط معين من تنظيم معقد لدورات الدماغ». كان العنف الفردي علامة على اضطراب في الآليات، التي تتحكم بالسلوك العنيف. وقد يكون الاضطراب راجعاً إلى مرض في الدماغ التكويني والمكتسب معاً (ضربة على الرأس).

يمكن أن يكون الأشخاص، الذين يظهرون علامات اضطراب أو فقدان سيطرة ميالين إلى الأعمال العنيفة أو يمتلكون «عتبات عنف

منخفضة». وبالنظر إلى هذه الاحتمالات ادعى الكاتبان أنه «من الضروري» تحديد أولئك الأشخاص ذوي الأدمغة القاصرة، بحيث يمكن علاجهم، وبالتالي يمكن «منع» عنفهم. إن تحديد الفرد العنيف وضبطه يعكس الادعاء القائل بأن «تعلم الناس التحكم المناسب بدوافعهم هو شرط مسبق لكل حياة مشتركة متحضرة»[1].

لقد أثار اقتراح منع العنف بوساطة ضبط السلوك الفردي سلسلة متلاحقة من الردود. ادعى بعض النقاد أن الطب النفسي أصبح قوة سياسية عبر إخفائه الصراع الاجتماعي بوصفه «مرضاً»، وتبريره الإكراه بوصفه «معالجة».

وقد جادل آخرون بأن الزعم بكون العنف يصدر عن دماغ الفرد هو زعم مريب بسبب «الطبيعة الاجتماعية أساساً (أو اللااجتماعية) للأعمال الهجومية العنيفة». فالعنف يشير إلى «الصفقة السلوكية، التي يقوم بموجبها شخص بممارسة عمل ضد شخص أو (شيء) آخر (يعده المتلقي أو الآخرون) مؤذياً وغير مبرر». ويحصل العنف ضمن سياق اجتماعي من التفاعل والتسمية، إذ يصبح الفاعل «العنيف» أحد المشاركين. ولهذا فإن السياق، المتضمن الشخص أو الشيء الموجه إليه العمل، هو «أيضاً تعبير عن الدماغ الفاعل للشخص الذي يقوم بالفعل... (وبالتالي) فإن هذا الفعل... يشتمل على أكثر من التعبير عن دماغ معين». إذ لا يمكن اختصار العنف بخاصية أو عملية محددة

(1) باربرا ويتمر، الأنماط الثقافية للعنف، عالم المعرفة، الكويت 2007، ص49.

في فرد معين فقط، إذ لا يوجد أساس مسبق لتمركز سبب السلوك العنيف ضمن دماغ شخص ما «محدد (من قبل شخص آخر) بأنه يعبر عن سلوك عدواني شاذ»[1].

إن الاضطراب بوصفه كياناً (دافعاً) «مقيماً في الفرد هو، إلى حدٍّ ما، علاقة مع شيء "يعيّن" ويقوّم سلوك / جسد الشخص في سياق اجتماعي. من الواضح أن «القوة على التحليل ـ إعطاء أسماء ـ للسلوك الإشكالي «هي سمة واحدة من القوة على تحديد أو «تعريف التنوع السلوكي المسموح به في المجتمع». فمثل قوة التصنيف والمقدرة على فرض التعاريف هذه هي «محك السيطرة الاجتماعية». بهذا المعنى إن «الفرد العنيف» ليس كياناً بيولوجياً متفرداً، وإنما هو بناء اجتماعي تاريخي لتعريفات العنف التي تحدد السلوك».

وإذا اعتبرنا أن هناك سلوكاً عنيفاً ذا صلة اجتماعية، عندها نعطي رأياً حول كيفية تصورنا لظاهرة العنف كحرب، وحول جميع المشاركين فيها. وكي نطور هذه الفكرة أكثر، نقول إن القتال، من وجهة نظر العنف المكتسب، هو سلوك مكتسب يعتمد على مبدأ التعزيز. فألم الهجوم يمكن أن يحرض القتال الدفاعي بألم، لكن «العدوان، الذي هو بالمعنى الحرفي هجوم غير مبرر، يمكن أن ينتج عن التدريب فقط»[2].

لقد قابل إس. أل. مارشيل S. L. Marshall، وهو مؤرخ الحرب

(1) المرجع السابق، ص50.
(2) المرجع السابق.

العالمية الثانية الرئيسي المعين، وأصبح فيما بعد جنرالاً في الحرب الكورية، قابل مئات من سرايا المشاة وسط مسارح العمليات في أوروبا والمحيط الهادئ. حيث أظهرت نتائج مقابلاته أن نسبة الجنود الذين أطلقوا النار على العدو لا تتعدى 15 في المائة. يمكن توقع أن ربع كتيبة مشاة فقط سوف يضربون في اشتباك مع العدو ما لم تفرض عليهم الظروف غير ذلك. يشتمل هذا الربع على القوات عالية التدريب، المتمرسة في الحملات العسكرية: «أقصد أن 75 في المائة لن يطلقوا النار أو يستمروا في إطلاقها ضد العدو ومنشآته، يمكن أن يواجه هؤلاء الرجال الخطر لكنهم لن يقاتلوا». ويصف مارشيل عدم إرادة القتل، وليس الخوف من القتل، في أثناء الحرب، التي التزم الجميع بها تقريباً. وبسوق دراسات نفسية حول تعب القتال وجدت أن خوف الفرد من قتله للآخرين، وليس من أن يُقتل، كان السبب الأكثر شيوعاً في فشله في المعركة... ولهذا السبب من المعقول الاعتقاد أنه لا تزال لدى الفرد العادي والصحي عادة ـ الرجل الذي بإمكانه تحمل ضغط المعركة الجسدي والعقلي ـ مثل هذه المقاومة الداخلية غير المتحققة تجاه قتل أخيه الإنسان، أي أنه ما كان ليقتله طواعية لو كان لديه إمكان الإحجام عن هذه المسؤولية[1].

كما أن وصف لي تشايلدرس Lee Childress، وهو عريف في كتيبة الهليكوبتر الهجومية 206 في فو لواي، فيتنام، من يونيو 1967 إلى مايو

(1) المرجع السابق، ص51.

1968، يعطي رؤية مماثلة، ويتساءل عن الشرعية الأخلاقية للحرب المصادق عليها رسمياً في خطاب التدنيس الذي يرافق الصراع والقتال: «عندما تصبح تحت النار لأول مرة تفكر اللعنة، كيف لهم أن يفعلوا ذلك لي؟ لو كان بإمكاني الحديث لأولئك البلهاء، الذين يطلقون النار عليّ لكنا تفاهمنا ولكان كل شيء على ما يرام. كان لدي شعور غامر أنني لو تمكنت من الحديث إلى أولئك الناس، لقلت لهم إنهم بالفعل مثلي، ولسنا نحن الذين نفعلها، بل هو نظام آخر، نحن فيه مجرد رهائن لهذا الأمر اللعين نتقاذف القاذورات بعضنا على بعض»[1].

إن «عدم وجود مثل هذا الشيء، الذي يدعى غريزة القتال»، يدعم الزعم القائل إن السلوك العدواني هو سلوك مكتسب، وتبعاً لهذه الرؤية فإن العدوان الناتج من التدريب يعني أن «الحافز على القتال يزداد مع النجاح، وأن الإحباط يقود إلى العدوان، ويمكن إرجاع كل تلك الأسباب الفسيولوجية إلى التحريض الخارجي»[2].

إن دور التعلم في العنف يتضمن التمييز بين مفهومين، الاكتساب والعادة: بحيث يعتمد اكتساب سلوك القتال على عوامل كيميائية حيوية: أما عادة القتال فتعتمد على التعلم السابق، أي على تاريخ من القتال. إن أنماط القوة المحركة العدائية الموروثة قد تكون جزءاً من تكوين الكائن السلوكي، لكن سواء أجرى التعبير عنها أم لا، فإن كيفية التعبير

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق.

عنها، تعتمد على التعلم. هذا ما يؤيده الدليل الذي يُظهر أن «السلوك الهجومي لدى البشر لا يحدث قبل الكلام والمشي»[1].

يقبل منظرو الغريزة الفكرة القائلة إن دافع العدوان أو غريزته تنبع تلقائياً، فتحدث سلوكاً عدوانياً. لكن لا يوجد بعد مثل هذا النوع من الدافع الموروث. من جهة أخرى، يقبل منظرو الغريزة فكرة تفترض بقاء الدافع العدواني المثار نشطاً إلى أن يجري تفريغه بنوع من العدوان. هنا يصبح العدوان نتيجة للإحباط الذي يحل محل الغريزة من حيث هي مصدر تنشيط. النظريتان متشابهتان جداً، إذ يمكن تفسير شيوع الإحباط بأنه وجود طاقة عدوانية زائدة لدى أشخاص يحتاجون إلى تفريغها[2].

يعد كنود لارسن Knud Larsen لورينزو من بين المنظرين، الذين يدعمون مثل هذه «الخرافات الهيدروليكية». المنطق كالتالي: تقدمت الإنجازات التكنولوجية بسرعة أكبر من الكوابح الفطرية، وبالتالي ضعفت فرصة الأشخاص للتخلص من الطاقة الزائدة. فيجب أن يجد البشر مخرجاً أو فرصة «لتفريغ طاقتهم العدوانية» أو تنفيساً عبر الرياضة والنشاطات التنافسية الأخرى. يفترض هذا أن مستويات أدنى من العنف ستحصل بعد التفريغ نظراً إلى بقاء مستويات أدنى من الطاقة العدوانية. ويلاحظ لارسن أن هذا الافتراض يغفل إمكان أن النشاطات التنافسية يمكن أن تقوي عادة العدوان بدل من خفضها السلوك العدواني[3].

(1) المرجع السابق، ص52.
(2) المرجع السابق.
(3) المرجع السابق.

وبالفعل، لقد وجدت دراسات مشاهدة التلفزيون العنيف أن التلفزيون العنيف يشجع العدوان، وأن الأشخاص العنيفين هم الأكثر انجذاباً نحو البرامج العنيفة. هذا يتناقض مع «نظرية التنفيس لدى وسائل الإعلام». إذ تظهر الأبحاث، التي تهدف إلى اختبار نظرية التنفيس، نتيجة معاكسة: «ينزع التنفيس والمشاركة بالإنابة إلى زيادة العدوان عوضاً عن التخلص منه». إضافة إلى ذلك، هناك مصادر إثارة عاطفية مختلفة قد تزيد عدوانية الأشخاص ذوي الميل نحو السلوك العدواني. وهكذا إذا ما اكتُسب السلوك العنيف فإن التعرض لأحداث، ونشاطات، أو نماذج رمزية عنيفة يؤدي إلى تعلّم السلوك العنيف وإلى تعزيز مثل هذا السلوك أيضاً.

لقد فقد عدوان الإحباط، أو نظرية الدافع، قيمته التفسيرية في ضوء البرهان أن للإحباط آثاراً مختلفة على السلوك». فالعدوان لا يتطلب الإحباط. «إن إثارة الإحباط أو الغضب هو شرط يسهّل العدوان وإن كان شرطاً غير ضروري له». يضم الإحباط تنوعاً كبيراً جداً من الشروط تتراوح من الهجوم الجسدي إلى الحرمان، ومن الهزيمة إلى التحرش والإهانة.

يُعزى التراكم الظاهر «للطاقة العدوانية» إلى عتبة استجابة منخفضة. إن مستوى الإثارة المنخفض يولّد استجابة نظراً إلى عدم تحمل الشخص للإثارة. وقد يغير تخفيض عتبة الاستجابة بوصفه دالاً على تغيرات في حالة الشخص الفيزيولوجية. وربما توجد عتبة ألم لا تحفز المحرضات تحتها هجوماً، بينما قد يثير الألم الزائد عن تلك الكثافة الدنيا سلوكاً

معادياً. فالمريض بنقص سكر الدم قد يعاني مشاعر متزايدة من التهيج والعدوانية تُزال بأخذ كوب من عصير البرتقال من دون التعبير عن المشاعر العدوانية. «إذ لا توجد طاقة عدوانية تستمر في التراكم، وليس هناك ضرورة للمشاعر العدوانية»[1].

هناك مثال آخر على تخفيض عتبة الاستجابة، وهو محاولة مساواة العدوان البيولوجي مع نقص السيروتونين. هذا تفسير ملائم للعنف يُقدم في زمن العنف الاجتماعي الواسع الانتشار، وفي أثناء هجرة تفتيتية، كونية، متعددة الثقافة. وهو يشبه نظرية «عتبة العنف»، التي قدمها مارك وأيرفين Mark and Ervin عام 1970 في إطار الصراع، والاضطراب الاجتماعي، الذي سببته حركة الحقوق المدنية، والاحتجاجات ضد المؤسسة الحاكمة، وضد حرب فيتنام، والحرب الباردة[2].

تأثير التنويم المغناطيسي

يشترك التلفزيون مع غيره من وسائل الإعلام بأنه وسيلة اتصال من جهة واحدة، إذ إنه لا دور للمشاهد إلا الأخذ والتلقي لأن «الصور التلفزيونية تتحرك بطريقة أسرع من أن يتداركها المشاهد بصورة كلية، ولذلك فهو يلحق بها داخل عقله ولا يترك له مجالاً لمناقشة المعلومات المارة على الشاشة إن هذا يبطل العقل الانتقادي ويجعل المشاهد كأنه تحت تأثير التنويم المغناطيسي، ولذا فإن التلفزيون يبدو في الحالة هذه

(1) المرجع السابق، ص53.
(2) المرجع السابق.

منوماً مغناطيسياً بارعاً مستخدماً أسلوب (الارتباك) الذي طوره الدكتور (ملتون أريكسون) وهو أحد الرواد في التنويم المغناطيسي، وأسلوب الارتباك يقوم على أن يعطي الشخص الذي نريد التأثير فيه أشياء كثيرة يتعامل معها لدرجة أنك لا تعطيه فرصة لعمل أي شيء والانتقال السريع إلى شيء آخر، وربما يطلب المنوِّم من الشخص المراد تنويمه الاهتمام بموضوع معين، أيِّ موضوع فليس لذلك أي أهمية عنده، وهنا نصل إلى العمل المفرط حيث يبدي المريض عوارض انهيار ويقوم المنوِّم بعد ذلك بتقديم بعض ما يطمئن المنوِّم بإعطائه أمراً واضحاً فيذهب المريض مباشرة في حالة (الغشية).

إن ما يقوم به التلفزيون والفيديو يشبه إلى حدٍّ كبير أسلوب الارتباك في التنويم المغناطيسي الذي ينتهي بانتزاع أفكار أخرى قد تكون مغايرة لسابقتها وهذا ما تعمد إليه الجهات التي تتقن صناعة غسيل المخ»[1].

وأسلوب التنويم والتخدير يبين مدى تأثر المشاهد بما يراه وقد يؤدي به إلى التقليد لأنه يتصرف بناء للأفكار الجديدة التي اكتسبها، وقد تكون هذه الأفكار مغايرة تماماً لما اكتسبه في حياته وتربيته المعروفة، ويظهر خطر هذا التنويم والتخدير على كل مشاهد مهما كان عمره وجنسه وإن كان أشد خطراً عند الطفل لأن المعلومات «الآتية إلى الطفل عبر الشاشة الصغيرة قد تحوي من المشاهد والحوارات والقيم والقواعد

(1) مروان كجك، الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتلفزيون، ص16.

الحياتية ما يخالف تماماً ما ينطق به الأهل ويوصي به المربّون والمرشدون التربويون، وهذا ما يخلّف نوعاً من الالتباس والتناقض يؤدي بالطفل نفسياً وعقلياً وتربوياً إلى حال من الاضطراب والبلبلة. فبينما يوصي الأهل الطفل بضرورة اتباع قواعد السلوك السليمة عندما يزور العائلة ضيف معين، كأن نرحب به باحترام، وأن نحسن الاستماع إلى حديثه وأن نتجنب المقاطعة أو التلفظ بكلام غير مقبول، فإن الطفل غالباً ما يرى على الشاشة الصغيرة مشاهد مثيرة من الفظاظة في الكلام والتصرّف لا يربطها بما سبقها وبما يليها، بل يعتبرها مشاهد واقعية من الحياة تثير عنده السؤال: أين الحقيقة بالمقارنة مع توجيهات الأهل والمربين؟»[1].

وهكذا فإن الطفل لا يهتم بنهاية القصة المعروضة أمامه بل ما يثبت بذهنه هو ما رآه من فعل أو جرم أو غير ذلك، وقد يعود السبب في بعض الأحيان إلى عدم قيام الأهل بالغالب بالتفسير والتعليق لأولادهم عن مغزى ما يشاهدون، بل كثيراً ما نجدهم مسرورين لانشغال أولادهم بأمر ما أراحهم قليلاً عن إزعاجهم.

وهذا الأمر لا يقتصر على الأطفال فقط، ذلك أن الكبار أيضاً الذين يتأثرون بالتلفزيون لا ينظرون إلى النهاية، فلو تيقن السارق أن البطل الذي قام بالسرقة كانت نهايته السجن لما سرق ونهب.

(1) جان جبران كرم، التلفزيون والأطفال، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، 1988م، ص37.

التعلم الاجتماعي

تنطلق فكرة نظرية التعلم الاجتماعي Social Learning Theory لعالم النفس الأميركي ألبرت باندورا أساساً من القول بأن «الإنسان يتعلم من خلال (المشاهدة والملاحظة) أكثر مما يتعلم من خلال الأسلوب القديم وهو أسلوب (المحاولة والخطأ) عبر التجربة المباشرة، لقد أظهر أسلوب التجربة المباشرة نتائج محدودة جداً في عملية التعلم نظراً لأنه يصعب إن لم يكن مستحيلاً على الإنسان أن يجرب كل شيء متى يتسنى تعلمه.

ألبرت باندورا أراد أن يثبت أن التعلم من خلال القدوة والمثال عبر المشاهدة والملاحظة من أخطر وظائف وسائل الإعلام، ولكي يبرهن على هذه الحقيقة من خلال نظرية (التعلم الاجتماعي) التي وضعها، فقد أجرى تجربة على مجموعتين من الأطفال[1].

أحضر باندورا مجموعتين من الأطفال وجعل كل مجموعة في غرفة فيها نفس الألعاب التي في الغرفة الأخرى إلا أنه عرض على المجموعة الأولى شريط فيديو يظهر فيه شخص يمارس سلوكاً عدوانياً (عنف لفظي وعنف جسدي) ضد دمية بحجم الإنسان. بعد فترة قام هو والفريق الذي معه وبشكل مفاجئ وسحبوا الألعاب من أطفال المجموعتين وجمعوهم في غرفة أخرى خالية إلا من دمية شبيهة بتلك التي كانت تتعرض للعنف في شريط الفيديو، لاحظ باندورا أن الأطفال

(1) نهى القاطرجي، الاغتصاب، دار مجد 2003، ص234 ـ 235.

في المجموعة الأولى الذين تعرضوا لشريط الفيديو عبروا عن سخطهم على الموقف الذي تعرضوا له (نزع الألعاب منهم ونقلهم إلى غرفة أخرى) بضرب الدمية وشتمها بالطريقة نفسها التي شاهدوها في الفيديو أكثر من أطفال المجموعة الثانية الذين عبر بعضهم عن غضبهم بأساليب أخرى غير ممارسة العنف ضد الدمية. استنتج باندورا أن تعرض الجمهور لوسائل الإعلام وبخاصة الأطفال يجعلهم يتعلمون منها أشياء كثيرة من بينها العنف، وخلص باندورا إلى نتيجة فحواها أن الأطفال يصطنعون من بين شخصيات وسائل الإعلام (نموذجاً) يحاكونه ويتعلمون منه كما حدث لأطفال التجربة الذين قلدوا الرجل الذي كان يضرب الدمية ويشتمها»[1].

وهذا التعلم لا يقتصر على الأطفال بل إن التجارب دلت على أن المشاهد مهما كان عمره يتأثر بما يراه، خاصة إذا كان ما يراه يحاكي معاناته وآلامه ويجد فيه حلولاً لأزماته ومثالاً على مدى تأثر المشاهد بما يراه على التلفزيون، أرسلت شبكة NBC في 10 سبتمبر 1974 «للمحطات التابعة لها دراما تلفزيونية بعنوان «مولودة بريئة»، وتشير هذه الدراما إلى قوة تأثير التلفزيون على السلوك الإنساني، وتدور فكرة الدراما حول فتاة شريدة يتم انتهاك عرضها داخل إصلاحية الأحداث، وتتضمن هذه الدراما مشاهد عنيفة يمكن الاعتراض عليها من جانب

(1) محمد بن عبد الرحمن الحضيف، كيف تؤثر وسائل الإعلام، مكتبة العبيكان، الرياض، 1995، ص67 ـ 68.

بعض المشاهدين، لذلك وضعت شبكة NBC تحذيراً في بداية عرض الدراما تقول فيه: «إن هذا العمل يحكي عن سلوك حقيقي بشأن انتهاك الأحداث وأثره على حياتهم وشخصياتهم، وتقترح الشبكة على المشاهدين أن يقرروا إمكانية مشاهدة هذه الدراما من جانب أبنائهم الشباب والصغار». وبناء على ذلك التحذير قررت خمس عشرة محطة تابعة لشبكة NBC عدم تقديم هذه الدراما. وبعد تقديم هذه الدراما تلقت الشبكة مئات المكالمات التلفزيونية التي تعترض على هذا العمل كما تلقت الشبكة مكالمات قليلة جداً من أفراد يحيون هذا العمل وصورته الواقعية... وبعد ثلاثة أيام من تقديم هذه الدراما تعرضت فتاة عمرها تسع سنوات للاغتصاب في منطقة قريبة من «سان فرنسيسكو»، وكان المغتصبون ثلاثة فتيان وطفلاً واحداً تتراوح أعمارهم ما بين التاسعة والخامسة عشرة، وتم استخدام زجاجة بيرة فارغة في عملية الاغتصاب، وتمت هذه العملية البشعة بصورة مطابقة تماماً لما حدث في الدراما التلفزيونية المقدمة[1].

وقد رفعت والدة الفتاة قضية ضد شبكة NBC بدفع مبلغ أحد عشر مليوناً من الدولارات كتعويض عن الضرر الذي أصاب الفتاة وفي سبتمبر 1976 صدر الحكم لصالح شبكة NBC وقررت المحكمة «أن الشبكة غير مهملة، وليس مطلوباً منها تجميد الإبداع الفني»[2].

(1) الاغتصاب، مرجع سابق، ص236.

(2) حسن عماد مكاوي، أخلاقيات العمل الإعلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994م، ص339 ـ 340.

الطفل والعنف على الشاشة

العنف في التلفزيون

كثرت الدراسات الحديثة حول تبيان أثر العنف التلفزيوني على المشاهد ودوره في ارتفاع نسبة الجرائم وفي إحساس الناس باللامبالاة تجاه الأحداث التي تعترضهم، ومن خلال التعمق في تفاصيل هذه الدراسات ونتائجها يمكن ملاحظة عدة أمور، ومن أهم هذه الأمور ما يلي[1]:

أ ـ ارتباط العنف بارتفاع نسبة الجريمة: تدل الأبحاث على وجود علاقة بين ارتفاع نسبة الجريمة وبين العنف التلفزيوني عملاً بنظرية التعلم الاجتماعي التي ورد ذكرها سابقاً، وقد نشرت منظمة الائتلاف الدولي ضد العنف التلفزيوني (بحثاً استغرق إجراؤه 22 عاماً) أظهر الأثر التراكمي للتلفزيون الذي يمتد حتى عشرين سنة لتظهر نتائجه، قال البحث: (هناك علاقة مباشرة بين أفلام العنف التلفزيوني في الستينيات وارتفاع الجريمة في السبعينيات والثمانينيات). وقالت المنظمة: إن ما

---

(1) الاغتصاب، مرجع سابق، ص236 ـ 238.

يتراوح بين 25 بالمائة و50 بالمائة من أعمال العنف في سائر العالم سببها العنف في التلفزيون والسينما».

وتكمن خطورة هذه النتائج في أن هذه الأبحاث جرت في فترة زمنية لم يكن العنف التلفزيوني يشكل فيها خطراً كبيراً من حيث نوعيته وأساليب عرضه كما هو في الأيام الحالية.

ب ـ ارتباط تأثير العنف بشخصية المشاهد: يربط كثير من الباحثين بين العدوان والسلامة النفسية، فالفرد «يتعلم العنف من وسائل الإعلام، لكنه لا يعمد إلى محاكاته وتقليده إلا في حالات الإحباط النفسي، وحينما تستثار عواطفه ومشاعر السخط والغضب لديه».

ويرى دايفيد إبراهمسين في كتابه سيكولوجية الجريمة أن «الأطفال الذين يصبحون ضد المجتمع أو مجرمين توجد بداخلهم سمات بحيث إن أي مثير يؤثر فيهم. ويجب أن نعترف أن هناك بعض الحالات التي تثير فيها المادة التلفزيونية السلوك الإجرامي حتى بين الأشخاص المضطربين عقلياً».

ج ـ ارتباط العنف باللامبالاة: يعتبر كثير من الدارسين أن للعنف دوراً كبيراً في إحساس المشاهد باللامبالاة وعدم الإحساس بالحوادث وبالآلام التي يصاب بها مَنْ حَوْلَه وقد قام فكتور كلين من جامعة يوتاه Utah باختيار هام يؤكد هذه المقولة، فلقد عرض فيلم عنف على مجموعتين من الأطفال كل مجموعة مؤلفة من أطفال وأولاد تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات وأربع عشرة سنة. المجموعة الأولى قليلاً

ما شاهدت البرامج والأفلام التلفزيونية في خلال عامين سابقين، والمجموعة الثانية كثيراً ما شاهدت البرامج والأفلام التلفزيونية (42 ساعة أسبوعياً وفي خلال السنتين السابقتين)، وقد وصل كل فرد من أفراد المجموعتين بأجهزة تسجل ردود فعل القلب والتنفس والعرق وغيرها من الردود الجسمانية الدالة على حالات نفسية.

وفي خلال فترة ثماني دقائق من الفيلم سجّلت الأجهزة ردود فعل الأعضاء الجسمانية الموصولة بها وكانت النتيجة هي التالية:

المجموعة الأولى أظهرت أحاسيس وانفعالات تتناسب إنسانياً مع المشاهد المعروضة، (نبض سريع، ضيق في التنفس، تصبب عرق).

المجموعة الثانية كانت ردودها متجاهلة تماماً ما يبث من مشاهد رعب وشراسة وعنف على الشاشة الصغيرة، وهذا يعني أن إدمانها مشاهدة هذه الأنواع من العنف خفّف من أحاسيسها الإنسانية إلى حدّ الانعدام».

د ـ ارتباط العنف بالتنفيس عن المشاعر: يغلب على ظن كثير من الناس أن مشاهدة العنف على التلفزيون تؤدي إلى تفريغ طاقة العنف الموجودة عند الناس، وقد أثبتت الدراسات خطأ هذه النظرية إذ إن التعرض لوسائل الإعلام التي تعرض الممارسات العنيفة «لا تنفس عن الفرد بقدر ما تدفعه وتحرّضه على ممارسة السلوك العنيف».

نشر أخبار الجرائم

تعمد معظم الصحف إلى نشر أخبار الجرائم وحكم القضاء فيها،

وتنقسم الآراء حول نشر أخبار الجريمة في الصحف إلى مؤيد ومعارض ولكل فريق آراؤه الخاصة به[1]:

1 ـ آراء المؤيدين

يعتبر المدافعون عن فكرة نشر أخبار الجريمة في الصحف أن هذا النشر يفيد المجتمع لعدة أسباب:

« ـ 1 ـ نسبة الجريمة إلى المجرم تقلل من ارتكاب الجريمة، لأن الإنسان إذا عرف أن صورته سوف تنشر وتوصف بالجرم فإن ذلك ولا شك ينفره من الجريمة.

ـ 2 ـ إن عرض أساليب المجرمين وطرقهم على الرأي العام يساعد المجتمع على تحاشي الوقوع في شراكهم كما يساعد رجال الأمن في القبض عليهم.

ـ 3 ـ إن نشر أخبار الجرائم يغري الأخصائيين بمحاولة إيجاد العلاج الناجح».

2 ـ آراء المعارضين

يعتبر المعارضون لفكرة نشر أخبار الجرائم في الصحف أن هذا النشر يؤدي إلى محاكاة الناس للمجرم، وهذا ما قاله العالم الجنائي الهولندي «وليم بونجر» الذي أكد على «أثر الصحافة السيئ في نشر جرائم جديدة، عن طريق تضليل الرأي العام من جهة واستثارة ما أطلق

(1) المرجع السابق، ص258 ـ 259.

عليه «غريزة المحاكاة» عند الإنسان من جهة أخرى، وذلك بنشر تفاصيل الجرائم الكبرى وصور المجني عليهم بقصد حب الاستطلاع المَرَضِيِّ عند العامة، أما أصحاب الصحف، وكلهم رأسماليون، فلا يهمهم إلا الثراء بأية وسيلة، حتى ولو كانت استغفال القراء وتسميم أفكارهم».

وتأتي الإساءة في طريقة عرض الجريمة «كأن يجري التركيز على المجرم وكأنه «بطل» استطاع أن يحقق ما لم يستطعه غيره، أو استطاع أن يحصل على ثروة طائلة بعد جريمة سرقة سهلة، أو استطاع أن يوقع رجال الأمن في حيرة بالغة حيث لم يستطيعوا التوصل إلى معرفة جريمته، وأنهم بذلوا جهوداً طائلة حتى توصلوا إليه ثم استطاع الهرب منهم، وهكذا فهو أمام هؤلاء القراء وخاصة الشباب المتهور والمراهق يبدو في صورة بطل ورجل شجاع ذكي مخادع».

المعيار الواجب اتباعه عند نشر أخبار الجريمة

تكمن خطورة نشر أخبار الجرائم في التقليد الأعمى الذي يُبتلى به بعض ضعاف النفوس الذين يقلدون المجرم في جريمته دون الانتباه للعواقب، لذلك يجب إيجاد آداب عامة ومراعاتها عند نشر أخبار الجرائم، ومن هذه الآداب[1]:

1 ـ تبيان أن الجريمة لا تفيد: وذلك يكون عند نشر الجريمة بعد

(1) المرجع السابق، ص 259 ـ 260.

توقيع العقاب بالمجرم، لأن هناك «خطورة في نشر أخبار جرائم نجح مرتكبوها في تجنب العقاب أو كان العقاب من الضآلة بحيث لا يمثل رادعاً. فهذا يؤدي بطبيعته إلى كسر حاجز الخوف وإضعاف عناصر الردع في النفوس.

ـ 2 ـ لا رومانسية في الجريمة: أن لا يصور المجرم في صورة بطل رومانسي مما قد يدفع الآخرين إلى تقليده جرياً وراء الشهرة والصورة الإعلامية البراقة، وعندما نشرت الصحف في مصر في أوائل الخمسينيات أخبار المجرم المسمى بـ«الخط» وكيف استطاع أن يتعب مطارديه من رجال البوليس، وكتبت عن مهارته في الاختفاء ودقته في الرماية وغير ذلك، ظهر في مصر ثلاثون خطاً.

ـ 3 ـ الحذر من تقديم وصفات جاهزة للإجرام: مثلاً كيف قامت عصابة ما بثقب جدار مصرف مستخدمة آلات معينة...».

ومن الأمثلة أيضاً ما نشرته جريدة النهار في قصة تعرض ب. ا. ح. (35 عاماً) لاغتصاب متكرر بعد تخديرها بعشبة دست لها في مرطب، والغريب في القصة ما قالته الصحيفة عن اسم العشبة التي سقاها المجرم للضحية، فقالت النهار: «وتبين أنه... اشترى العشبة المخدرة... من أحد المتاجر وقال: إن تناولها يؤدي إلى ارتخاء ونشوة وما يشبه الغيبوبة».

فالكاتب هنا لا يكتفي بنشر اسم العشبة بل ويبين للناس تأثير هذه العشبة على النفس.

قسوة الإعلام المرئي لماذا؟[1]

عشق تعذيب المشاهدين، السلوك البارز للإعلام المرئي متمثلاً في مبالغات تقديم تفصيلات الكوارث الطبيعية وآثار الاعتداءات الحربية، والإصرار على تصنيع برامج تصدير القسوة للمشاركين وللمشاهدين.

والسؤال الذي أتعبه البحث عن إجابة هو لماذا كل هذه المساحات من السادية التي يمارسها الإعلام المرئي على المشاهدين؟ وتنطلق من السؤال الضائع في متاهات ألغاز السادية التي يزعج بها القائمون على تخطيط مواد المحطات الفضائية، أسئلة كثيرة تظهر في سطور هذا التناول التحليلي لظاهرة القسوة المنتشرة في الفضائيات العربية.

الكوارث والحوادث الطبيعية التي تنتج عن غضب الطبيعة، والكوارث والحوادث الناتجة عن سلوكيات البشر الذين لا يعترفون بحقوق البشر في الحياة، عنيفة، مزعجة، مؤلمة... والآلام الناتجة عن هذه الكوارث، عندما نستمع إليها، نتعذب، وندعو لشهداء هذه الكوارث بالرحمة، ولأسرهم بطاقة تحمل فراق أحبابهم، ومجرد تصور نتاجات هذه الكوارث والحوادث، يشعرنا بالألم النفسي الذي ينعكس

(1) مدحت أبو بكر، الفنون، نيسان 2005.

آلاماً تؤذي الجسم، وإعلامنا العربي المرئي، لا يكتفي بهذه الآلام النفسية الجسيمة حيث تتنافس القنوات الفضائية في استعراض تفصيلات أشلاء الضحايا، وكاميرات المصورين تقترب «زووم إن» بهدوء من هذه الأشلاء، وبعد أن تصبح الصورة «كلوز أب» لقطة مثيرة، أو لقطة مكبرة جداً تستقر الكاميرا على أصابع مبتورة، وأذرع ملقاة على الأرصفة، ورؤوس مقطوعة، وأجساد من دون أطراف، وأجساد منزوعة الثياب، وعيون مفتوحة رعباً وهلعاً من الأهوال التي شاهدتها وقت وقوع الحادث، وأمهات في حالة احتضان لأطفالهن، وأطفال يحتضنون لعباتهم، وسيارات ترقد فوق الأجساد الميتة، وعربات قطار تطل منها الجثث، وبقع دموية ذات مساحات متعددة، وترتفع درجة حرارة القسوة، عندما تقترب الكاميرات من ضحايا الاعتداءات الإسرائيلية، خاصة الأطفال.

إن دور البعد الإخباري الإعلامي هو التعريف بعناصر الخبر «من وأين وكيف ومتى ولماذا»، وهذه التساؤلات التي تشكل ملامح اكتمال الخبر عند توفير الإجابات / المعلومات، تمنحنا المعرفة، وتعلمنا بما جرى من أحداث في مختلف بقاع هذه الحياة، واقتران العناصر الإعلامية الخبرية بالصورة، يمنحها المصداقية، ويمنحنا الربط بين عناصر الخبر، وملامح الصورة، فنصنع الخبر في إطاره الواقعي بعيداً عن شطحات التصور والتخيل، ونكتفي بممارسة التحليل والتفسير والربط بعد التأمل كعمليات تواكب متابعتنا للجهد الإخباري الذي تقوم به وسائط الإعلام المرئي. هذا هو الهدف النبيل، والوظيفة المثالية،

والجهد المشكور للإعلام المرئي، فما الهدف من ممارسة السادية على المتلقين بكل هذه الصور المزعجة؟ أولا تكفي لقطة لقطتان سريعتان للحوادث والكوارث وأحداث المعارك والقتال والاقتتال تساند الجانب الإخباري المسموع، وتؤكد على حرفية العاملين بالفضائيات، وقدرتهم على التواجد في مكان الأحداث وقت وقوع الأحداث؟ وما الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه القائمون على فضائياتنا، عندما يصرون على عرض واستعراض لقطات ومشاهد طويلة للأشلاء، وللضحايا، وللقتلى، وللشهداء، وتظل هذه المشاهد السادية القاسية المؤلمة مستمرة، حتى بعد الانتهاء من إلقاء الخبر؟

وترتفع درجة إيلام المشاهد أكثر، بتلك الأشرطة التي تتضمن مشاهد للمخطوفين في العراق، وهم يرتعشون، ويبكون ويتوسلون إلى رؤساء دولهم لسحب قواتهم من العراق، ثم مشاهد ذبحهم وقطع رقابهم!

ولو كان هؤلاء يعتقدون أنهم يحققون خبطات إعلامية بعرضهم لأشلاء القتلى، واستعراضهم لأطراف الضحايا المبتورة الملقاة في البقع الدموية تحيط بها القطط والكلاب، ويطير فوقها الذباب، فهم واهمون، لأن الخبطات الإعلامية لها معايير ونظم وأسس، أبرزها وأهمها عدم إيلام وعدم إزعاج المشاهدين، وعدم انتهاك حرمة الموتى مهما اختلفت عقائدهم، ومهما تنوعت أفكارهم، ومهما تعددت طبقاتهم وأوضاعهم الاجتماعية، وأتساءل: لماذا تغيب أصوات المدافعين عن حقوق الإنسان تاركين الإعلام المرئي يعبث بنا، وينتهك سلامنا الاجتماعي،

وسلامتنا النفسية، وحرمات الإنسان الذي غادرته الحياة سقوطاً بطائرة أو انقلاباً بقطار أو قتلاً أو حرقاً أو شهادة!؟ ولماذا يصمت الناشطون في هذا المجال تاركين عشاق القسوة الإعلامية المرئية يؤلمون أسر هؤلاء الضحايا بعرض تفصيلات ما يتعرضون له من حوادث مؤلمة؟!

برامج دموية

تقدم هذه البرامج مشاهد تفصيلية لعمليات جراحية، والكاميرات صقور قاسية المخالب منقضة على الشرايين والشعيرات الدموية بينما مشارط الأطباء تفتح وتقطع وتمزق، من مشاهد العمليات الجراحية إلى مشاهد استخراج الطفيليات من أجساد ضحايا الهجمات الطفيلية، فتنقل الكاميرات الديدان القصيرة الغليظة، والطويلة الرفيعة، والمتوسطة الممتلئة، والمتكورة والملتفة حول نفسها، أو حول أمعاء المريض، وتبالغ الكاميرات فتقترب من خلال لقطات مغرية جداً من هذه الديدان أثناء استخراجها من رقاب وأرجل وبطون الضحايا والدماء تحيط بها وتسيل منها!

سادية الرعب

تنتشر على شاشات الفضائيات نوعية من البرامج يستخدم مقدموها فقرات مرعبة، مخيفة، مؤلمة، سواء للمشاركين فيها، أو لمتلقيها، وأبرز نماذج هذه البرامج.

- تحدي الخوف على فضائية M.B.C.
- سيرفايفر على فضائية L.B.C.

ـ حلها واحتلها على فضائية L.B.C.

والبرامج الثلاثة تتنافس ويبذل معدوها ومقدموها أقصى ما لديهم من طاقة لتعذيب المشاركين والمشاهدين من خلال فقرات تستفز مشاعر الاشمئزاز والضيق والخوف عند جميع المتعاملين معها، ومتأمل هذه البرامج لن يعثر على أي هدف ترفيهي أو تثقيفي أو تنشيطي، أو أي هدف من أهداف الإعلام المرئي، والمتابع لهذه البرامج لن يجد صعوبة في اكتشاف أهدافها السادية العقابية، وعندما نتساءل لماذا العقاب؟ لماذا السادية؟ لن نجد إجابة مقنعة، فليس منطقياً استهدافنا عبر هذه الفقرات المرعبة المزدحمة بالقلق والقسوة، إلا إذا كان هؤلاء يسعدون بتعذيب المشاركين في برامج ومتابعيها.

تأملوا معي برنامج «تحدي الخوف» مجموعة من الفقرات بين مجموعة من المتنافسين والمتنافسات، والفاشل في التواصل مع الرعب والاشمئزاز يغادر اللعبة.. والفقرات في هذا البرنامج تتكون من قسمين:

الأول: الفقرات المثيرة للاشمئزاز والضيق.

الثاني: الفقرات المثيرة للرعب والقلق.

ومن نماذج القسم الأول... يضع المتنافسون رؤوسهم في أحواض مزدحمة بالأسماك، أو عيون الأبقار النيئة وأمخاخ الخراف ـ النيئة أيضاً، ويقومون باستخراج هذه الأشياء بأفواههم ويضعونها في أحواض فارغة! أما فقرات القسم الثاني فتتنوع قلقاً ورعباً بين غطس المتنافسين

في أحواض مائية كبيرة، والسير بالسيارات أسفل شاحنات تجر مقطورات، والتعلق بالطائرات المروحية، والقفز من الجو إلى الماء!

أين التنافس في وضع عيون البقر وأمخاخ الخراف والأسماك الصغيرة بين الشفاه، والضغط عليها حتى لا تفلت، والسير بها لوضعها في الصناديق الزجاجية الفارغة، وماذا يفعل المتسابقون بآلاف البرامج لو غرق أحدهم عند قفزه من المروحية إلى الماء، أو اختلاط لحمه بحطام السيارة لو دهسته الشاحنة، أو اختناقه وغرقه تحت الماء في الصندوق المائي الضخم، ثم ما الآثار النفسية المترتبة على متابعة هذه النوعية من الفقرات خاصة عندما يتوقف المتجولون بالريموت كنترول أمامها من المصابين بأمراض القلب والقرح المعدية والتهابات القولون العصبية؟!.

ومن برنامج إثارة الاشمئزاز والرعب إلى برنامج السير فوق أعمدة خشبية تزأر أسفلها الأسود، وتسلُّق جدران ملساء تزأر تحتها أمواج البحر القاسية، أو البقاء في وضع القرفصاء داخل قفص حديد لا يتسع لنسناس صغير، ويجلس بداخله متسابق سيئ الحظ، أو في حاجة إلى الجائزة التي يحلم أن يفوز بها لو استمر على قيد الحياة، هذه نماذج بسيطة من الفقرات التي يحتويها برنامج «حلها واحتلها» الذي ينافس شقيقه السادي «تحدي الخوف» في عرض الفقرات المثيرة للاشمئزاز وأبسطها وضع رأس المتسابق داخل قفص زجاجي مزدحم بالفئران التي تتجول بمنتهى الحرية على رأسه، وتلعق جبهته وخديه، وتضع ذيولها الطويلة الملتوية في فتحتي أنفه. ولا بد أن يظل في هذا الوضع حتى

يستطيع أحد زملائه تخليصه عندما يعثر على المفتاح الذي يفتح القفص الفئراني، إذا نجح في تسلق الجدران الملساء في التوقيت المحدد، وإلا سيظل زميله حبيساً لتجوال السادة الفئران ولعقهم ومرحهم.

ومن السادية الفردية إلى السادية الجماعية في برنامج «سيرفايفر» أي الشخص الباقي على قيد الحياة بعد أحداث خطيرة ومصائب، أو حيث يلقي البرنامج بمجموعة من الشباب والفتيات من دول عربية متعددة في منطقة أدغال وأحراج تتناسب مع التركيبة الاجتماعية للإنسان البدائي.

وعلى هؤلاء ممارسة حياة إنسان الغاب مع توافر العديد من الأنياب التي تغرسها الجماعة في أحد الأفراد ليغادر محروماً من استكمال حياته والتطلع إلى جائزة البرنامج وفي هذه الأدغال، كل متسابق مسؤول عن تحمل لدغات العقارب، وعضات الثعابين، والجروح، والكسور الناتجة عن قسوة الطبيعة، وتواجد الأشواك في كل مكان، خاصة أن هؤلاء البشر يرتدون ملابس تعرضهم للجروح والكسور، ويبدو أن هذه الملابس أحد الشروط الأساسية التي وضعها صناع البرنامج ضمن قائمة أخرى قاسية من الشروط.

واستمراراً لمسلسل السادية، تتابع كاميرات البرنامج ذات التقنيات التصويرية البارعة الإناء المتسخ الذي يتلقى أحد المتسابقين لبن «المعزة» التي يحتفظ بها ويعتني بها، ويطعمها من أجل الحصول على اللبن، ويشرب المتسابق اللبن الذي يحتضن القاذورات، ولا ينسى هذا المتسابق تعذيب زميله الذي طلب مشاركته شرب اللبن فيبلغه أن شعر «المعزة» وأشياء أخرى في الإناء، وعندما يحاول إبعاد الشعر والأشياء

الأخرى، يطالبه خصمه بشرب الشعر مع اللبن، ولا بد من تعذيبنا «بالمرة» حيث تقترب الكاميرا وتدخل الإناء لنشاهد ما يجعلنا نقرر عدم الاقتراب من أي لبن طوال حياتنا، أو على الأقل طوال مساحة زمنية تضمن لنا نسيان هذا المشهد المؤلم.

ويستمر تعذيبنا بلقطات للكسر والتورم بذراع أحد المتسابقين وآلام وجروح عينيه، والمناطق المحيطة بهما، والأساليب البدائية لطهي الأطعمة، والتركيز على إبراز أساليب الطهي المزعجة، والأفواه التي تمضغ أطعمة بلا ملامح.

ونأتي إلى المؤامرات التي ينظمها الجميع ضد شخص يقررون أنه الضحية القادمة، وهنا إعلاء لصفة الأنانية، وتغييب القيم المادية على القيم المعنوية، والتكريس للسمات السلوكية السلبية إلى درجة ممارسة بعض المتسابقين للسلبيات السلوكية غير المبررة، وغير المنطقية، وغير المقنعة، لمجرد أن أعضاء جماعة التآمر أبلغوه بالتصويت ضد الذي اتفقوا على إخراجه من المسابقة، وتظهر الدهشة واليأس والضيق على ملامح هذا الشخص الذي يفاجأ بتصويت صديقه ضده، لكنها قوانين اللعبة السادية.

هذه السلوكيات تنعكس بصورة مباشرة وغير مباشرة على العلاقات التنافسية بين المشاهدين، وتجعل من الأنانية والتآمر وتغليب المصالح الذاتية سمات عادية من أجل إزاحة من يقف معوقاً لتقدم أو نجاح أو انطلاق شخص في مختلف مجالات العمل، وبدلاً من العلاقات التنافسية المستندة إلى الأساليب السلوكية المشروعة المستمدة من

الالتزام القيمي الديني والأخلاقي والمجتمعي، والمعتمدة على بذل الجهد وإظهار الكفاءة وتلقي الأساليب النظرية والعملية المساهمة في إنجاح المتنافسين، يصبح اللجوء إلى التآمر والتفكير في إزاحة بقية المتنافسين، أسلوباً سلوكياً اعتمدته سادية الإعلام المرئي كأحد أهم أساليب توصيل المتنافسين إلى أهدافهم.

عنصرية إعلامية

قبل تأكيد جمعيات حقوق الإنسان على حقوق أي إنسان في أي مجتمع بحيث يضمن الحياة الحرة الكريمة والاستقرار والشعور بالأمن وإشباع الاحتياجات الإنسانية الأساسية عبر الأطر المشروعة، يأتي التأكيد الديني على هذه الحقوق، فلا فروق بين البشر من خلال معايير شكلية أو فكرية أو طبقية، والتقوى هي المعيار الأساس في تميز الإنسان، والتقوى هي الباب الكبير الذي تدخل منه كافة السلوكيات الإنسانية الإيجابية لتحقيق مجتمع يزينه الخير والحب والعدل والجمال والحق، لكن برنامج «سوان» الذي تبثه مترجماً فضائية MBC يؤكد تلك النزعة العنصرية، وينتصر للتركيبة الشكلية السطحية، ويميز بين البشر على أساس الجوانب الجمالية الظاهرة في الوجه والجسد، ويبرز مشكلات المرأة من خلال الجوانب الشكلية مؤكداً أن الأزمات النفسية التي تصيب السيدات والفتيات ما هي إلا نتاج امتلاكهن لوجوه لا تتوافر فيها معايير الجمال، وأجساد لا تحمل عناصر الجاذبية، ويمارس صانعو البرنامج ساديتهم بالمبالغة في استعراض العيوب الجسدية، وملامح

القبح في وجه الضحية التي يصنعونها على مائدة تشريحية جسدية ونفسية مبرزين معاناتها من خلال تعليقاتهم بعبارات تؤكد العذاب الذي كانت الفتاة أو السيدة تعانيه، ومن خلال سيناريو مصنوع تتجول فيه الكاميرات في داخل منزل الفتاة أو السيدة، وجمل تنطق بها لتأكيد عذاباتها، ويتضمن السيناريو الجوانب التشريحية من خلال خطوط بيانية على وجه جسد الفتاة أو السيدة، ثم مشاهد للعمليات الجراحية التي تنشط فيها المشارط، وتسيل من خلالها الدماء، وتظل الضحية بعيدة عن جميع أنواع المرايا مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر، وبعد التغيير الجذري المصنوع بأيدي أطباء يفخرون بما صنعوه، تقف الضحية أمام مرآة لتشاهد ما فعلته أصابع ومشارط الأطباء بوجهها وجسدها، ومن خلال سيناريو تشويقي، وكاميرات بهلوانية تتقافز في مختلف الأماكن، وتنقض على مختلف الزوايا، وترصد أدق الحركات والأفعال وردود الأفعال، تنفرج الستارة ببطء، عن مرآة تمنح الضحية فرصة مشاهدة كامل ملامحها الجديدة المصنوعة في ملامح الوجه وتكوين الجسد، واستمراراً لرد الفعل المرسوم عبر سيناريو مخادع، تفتعل الضحية إبراز مشاعر السعادة التي تساندها الدموع الفرحة، ولا أدري أي فرحة تلك بعد أن فقدت الفتاة المخدوعة كيانها وملامحها التي خلقها العلي القدير بها، وأصبحت شخصية أخرى مختلفة تماماً عن شخصيتها؟

أي فرصة التي تعلنها الفتاة المصنوعة بعد أن سحبوا منها كيانها وأعطوها كياناً آخر؟ وكيف تتعايش مع كيانها المصنوع بعد أن فقدت كيانها الحقيقي الأصيل؟ وكيف تتعايش مع مجتمعها الذي تعامل مع

كيانها الحقيقي؟ وإذا تركنا العذابات التي ستعانيها الضحية، وتعاملنا مع السادية التي يسببها البرنامج للفتيات والسيدات اللاتي لا يمتلكن الملامح الجميلة، والأجساد الجاذبة، طبقاً للمعايير التي يتعامل بها أولئك المتعاملون مع البشر على أسس شكلية سطحية، نجد أن ملايين المشاهدات سيلتهمهن الإحباط، ويعبث بهن الاكتئاب، فضلاً عن تكريس البرنامج لفكرة سيطرة الجوانب الشكلية لمعايير أساسية للعلاقات والتفاعلات الاجتماعية الناجحة متجاهلاً الطاقات التي منحها الله سبحانه وتعالى لكل البشر، متناسياً أهمية التميز العقلي والفكري كمعيار للنجاح، متغاضياً عن أهمية الجمال الداخلي الذي لا يعترف بسيطرة الملامح الخارجية، مهمشاً السلوكيات النبيلة كأساس للتميز الإنساني، وكمعيار للنجاح والقدرة على بناء العلاقات الجميلة، ودفع التفاعلات الإنسانية إلى مناطق تحقق السعادة، وصناع هذا البرنامج يتجاهلون حقيقة حياتية إنسانية مهمة تتمثل في نسبية الجمال، ويريدون بهذا البرنامج التأثير الإيحائي في هذه الحقيقة ليتحول المشاهدون لا شعورياً عنها، متبنين وجهات نظر صانعي البرنامج السادي المتبلورة في ضرورة التعامل مع ملامح الوجه وجاذبية الجسد كأساس للعلاقات والتفاعلات والنجاح والصحة النفسية، وهذه الآراء تمنح المشاهدين الوهم، وتصدر لهم الخداع، وتدفعهم إلى مناطق ممارسة العنصرية.

انتهاك الخصوصية

مشاعر البشر، ملك للبشر، وأجمل ما في هذه المشاعر البشرية، خصوصيتها، تلك الأبواب المغلقة على أسرارها، تلك الأستار السميكة الحاجبة لبكارتها، وعندما نقرر فتح باب من أبواب مشاعرنا متفاعلين مع أحبتنا، راغبين البوح بشيء من أسرارنا، نفعل ذلك بإرادتنا واثقين أن الأحبة مقدرين لخصوصية تلك المشاعر. أما الانتهاك العلني لتلك الخصوصية فيؤلمنا، يوجعنا، يشعرنا بالقسوة، وإذا كان الانتهاك على نطاق محدود، يؤلم، فما الحال عندما يجري الانتهاك علناً أمام الملايين، برنامج «افتح قلبك» لجورج قرداحي يفعل هذا الانتهاك في الفضاء العام. والبرنامج نموذج من نماذج سادية الإعلام المرئي، وإن كانت سادية هذا البرنامج الأخف إيلاماً بين النماذج الحربية والكارثية والبرامج الدموية الأخرى، لكنها تظل سادية، وتظل قاسية، وتظل مؤلمة.

عندما يحدث ما يفرق بين حبيبين خطيبين، يسعى الحبيب إلى الحبيب، عتاب، حوار ساخن، أخطاء، أغلاط، لا يهم، لأن التعبير عن المشاعر محجوب عن الجميع، مفتوح أمام الخطيبين، حتى عندما يتدخل طرف آخر، أو طرفان، لن يسمح الحبيبان إلا لصديق أو قريب يعي خصوصية العلاقة، ويمتلك طاقة الاحتفاظ بما شاهده، وبما استمع إليه، وما حدث في افتح قلبك للفنان الكاريكاتيري المغربي، سبب له جرحاً نفسياً لن تستطيع السنوات، ولن تقدر العلاقات، ولن تتمكن الكلمات من إزالة آثاره، أو تطبيب عمقه، أخطأ الفنان في ثقة خطيبته، استمع إلى أهله، ولو قصدها وحاول الاعتذار، حبهما يمنحهما متعة المحاولة وإعادة العلاقة إلى الجريان في مساراتها الجميلة، لكن قرداحي

استضافهما، وضع ستاراً بينهما، واستدرج الشاب الطيب حتى أعلن رغبته في العودة، وأعلن أسفه، وقدم اعتذاراته، وعندما سأل قرداحي الفتاة، هل أفتح الستارة، رفضت، وعاد الشاب مكسوراً، مجروحاً، منزوع الكرامة، أمام الملايين ومن بينهم أهله واصدقاؤه وجيرانه ومعارفه، ما هذه القسوة السادية الناتجة عن انتهاك الخصوصية؟ وإذا كان الناس يتمتعون بتلك النيات الحسنة وتدفعهم رغباتهم في إصلاح ما أفسدته السلوكيات بينهم وبين من يحبونهم، فلماذا نستدرجهم ونمارس عليهم تلك السادية الإعلامية أمام الملايين، السادية نفسها التي تمارس مع ضيوف البرنامج الذين يلقون بأسرارهم وخصوصيات علاقاتهم الأسرية والزوجية عارية على أرصفة السادية الإعلامية بينما السادة صناع البرنامج المسيل للدموع يبتسمون ويضحكون؟

المرضى النفسيون والمصابون بمشكلات الخلافات الأسرية من حقهم ضمان السرية لهم في العيادات النفسية ومراكز الاستشارات الأسرية ومراكز العلاج الأسري، والمعالجون يقسمون على الاحتفاظ بما يحصلون عليه من أسرار خاصة ومعلومات لا بد من أن تظل مستورة حتى لا تجرح مشاعر أصحابها... فكيف ينتهك هذا البرنامج خصوصيات البشر، ولماذا يمزق الأستار كاشفاً أدق الأسرار.

قبل مخاطبة جمعيات حقوق الإنسان لحمايتنا من سادية الإعلام المرئي، نخاطب ضمائر أصحاب الفضائيات العربية، نخاطب ضمائر مصوري الفضائيات العربية، نخاطب ضمائر معدي ومقدمي برامج الفضائيات العربية.

الممارسة اليومية لعرض مشاهد القتل والذبح والدمار... تحول هذه المشاهد إلى كيانات صماء يتأملها المشاهد القادر على متابعتها ويمط شفتيه، برامج العمليات الجراحية، إهانة لأصحابها ولمشاهديها، برامج تغيير وتحويل وصناعة أشكال وأجساد أخرى صفعات على وجوه المطالبات بحريات وحقوق المرأة، انتهاك خصوصيات وأسرار الناس، صفعات لمشاعر الناس، ويا صناع الفضائيات، الناس أغلى من برامج السادية، ومشاعرهم أهم من ملايين سادية الإعلام المرئي.

التلفزيون والعنف[1]

ظل موضوع العنف على شاشة التلفزيون وتأثيراته المحتملة في الأطفال مثار خلاف في الرأي لفترة طويلة، وقد أُجريت دراسات في هذا الموضوع، بناء على طلب الكونجرس الأمريكي في الأعوام 1954 و1961 و1964 و1970 و1977. وحينما نشر تقرير إدارة الصحة العامة عن «التلفزيون والسلوك الاجتماعي»، خصصت أربعة من مجلداته الخمسة للدراسات التي تناولت تأثيرات مشاهدة برامج العنف التلفزيونية. والواقع، أن معظم الندوات، والمقالات، والدراسات التي تعرض لتأثيرات التلفزيون في الأطفال تركز بحثها على هذه المسألة وحدها.

ولهذا الاهتمام الشديد بتأثيرات العنف في التلفزيون في الأطفال ما يبرره: فعدد الأحداث الذين أُلقي القبض عليهم لارتكابهم جرائم عنف خطيرة ارتفع بنسبة 1600 في المائة بين عامي 1952 و1972، استناداً إلى أرقام مكتب المباحث الفيدرالي FBI. وطبقاً لما جاء في دراسة متميزة

(1) ماري وين، الأطفال والإدمان التلفزيوني، عالم المعرفة الكويت، 1999، ص 115 - 128.

أُجريت في مركز دراسات علم الإجرام والقانون الجنائي بجامعة بنسلفانيا، تمت مقارنة مجموعتين كبيرتين من شباب المدن بلغت إحداهما سن الرشد في الستينيات والأخرى في السبعينيات. وقد أظهرت مجموعة السبعينيات أن معدل عمليات القتل والعنف الأخرى كان أكثر ثلاث مرات من نظيره في مجموعة الستينيات. ولما كانت الفترة ما بين عام 1952 و1972 هي الفترة الفعلية لتعاظم شأن التلفزيون في حياة الأطفال الأمريكيين، لأن الأطفال الذين بلغوا سن الرشد في عام 1960 يعدون، جوهرياً، من جيل ما قبل التلفزيون، ومع تشبع البرامج التي يشاهدها الأطفال بالجريمة والتخريب، فقد بدا أن من الصواب البحث عن صلة بين المسألتين.

بيد أن هذه الصلة لا تزال تراوغ علماء الاجتماع والباحثين، على الرغم من جهودهم الكبيرة لإثبات وجودها. فالعنف البغيض حقاً، السادي، المذهل في تنوعه، الذي يظهر على شاشات التلفزيون في البيوت لا بدَّ أن تكون له تأثيرات عميقة في سلوك الأطفال، إلا أن من الواضح أنه لن يجعلهم يتصرفون بصورة خطيرة ضد مصلحة المجتمع.

وفي حين توصل التحديث الذي أجرته الحكومة الفيدرالية في عام 1982 على تقرير إدارة الصحة العامة الصادر في عام 1972 إلى وجود دليل، بالفعل، على أن العنف «الزائد» على شاشة التلفزيون يؤدي مباشرة إلى سلوك عدواني وعنيف بين الأطفال والمراهقين، يتضح أن ذلك السلوك كما شوهد في مختبرات البحث لا يشمل الاغتصاب والقتل، وهي الجرائم الخطيرة المتضمنة في تقرير المباحث الفيدرالية،

بل شمل عمليات اعتداء طفولية مألوفة مثل الدفع، والدسر، والضرب، وما إلى ذلك.

والقول إن العنف على شاشة التلفزيون سيجعل من الأطفال الأسوياء أحداثاً جانحين فكرة يتردد الإدراك السليم أمامها. والواقع أن اليقين الحدسي لدى الآباء بأن مشاهدة برامج العنف في التلفزيون لن تحول أطفالهم إلى مغتصبين وقتلة هو ما يسمح لهم بالتساهل إزاء انغماس أطفالهم في برامجهم الأثيرة، العنيفة باستمرار على الرغم من النصائح الجادة التي يسديها علماء النفس والمربون.

والواقع أن من الصعب خاصة بالنسبة للآباء تقبل فكرة أن التلفزيون يحرض على السلوك العدواني حين تكون وظيفته في البيت جدّ مختلفة. فهناك، يبقي التلفزيون الأطفال هادئين وسلبيين، ويقلل من شدة اللعب وصخبه، ويحول دون حدوث انفجارات انفعالية بين الإخوة والأخوات، ويزيل عدداً من «التجارب» المنزلية المخربة المحتملة التي قد ينغمس الأطفال فيها إن لم تشغلهم حلقات تلفزيونية مثل The Dukes of Hazzard أو The Incredible Hulk.

إذا كان تراكم المشاهدة سيحولنا جميعاً، شيئاً فشيئاً، إلى مخلوقات فاسدة، فإن تراكم المشاهدة للخير يجب أن يجعل منا، بالتدريج، قديسين! فأنت لا تستطيع الحصول على هذا دون الآخر، اللهم إلا إذا كنت مستعداً لإثبات أن الشر شيء يشبه الكوليسترول ـ شيء يتكدس ببطء ويعوق حركة الجسم، بينما يشبه الخير السبانخ، في سهولة الهضم وسرعة الإبراز.

لكن إذا لم يكن المضمون العنيف لبرامج التلفزيون هو ما يفضي إلى السلوك العنيف، فهل كان محض مصادفة فحسب أن دخول التلفزيون إلى البيت الأميركي جلب معه أحد أسوأ أوبئة العنف لدى الأحداث في تاريخ الأمة؟ يقول أحد أساتذة القانون وعلم الاجتماع رداً على الإيحاء بأن التلفزيون عامل مشارك في عنف الأحداث: «إنني لا أقترح وجود صلة مباشرة (مع التلفزيون) إلا أن مما لا يمكن تصوره عدم وجود أي تأثير».

عند محاولة فهم العلاقة بين المشاهدة التلفزيونية والسلوك العنيف، ينبغي أن يواجه المرء أولاً هذه الحقيقة الغريبة، وهي أن برامج العنف تهيمن على التلفزيون في الوقت الحاضر. غير أن الحال لم تكن هكذا دائماً. فمن الجدير بالملاحظة أن الزيادة في حوادث العنف على شاشة التلفزيون كانت 15 في المائة في الفترة ما بين عام 1951 و1953. وفيما بين عامي 1954 و1961 ارتفعت النسبة المئوية لبرامج وقت الذروة المخصصة لحلقات المغامرات العنيفة من متوسط 17 في المائة إلى 60 في المائة من مجموع البرامج. ومع حلول عام 1964، وطبقاً لبيانات الجمعية القومية من أجل راديو وتلفزيون أفضل The National Association for Better Radio and Television خصصت مائتا ساعة تقريباً في الأسبوع لمشاهد الجريمة، بما في ذلك تنفيذ أكثر من 500 عملية قتل على الشاشة المنزلية! ويعكس هذا زيادة تبلغ نسبتها عشرين في المائة في العنف التلفزيوني طوال برامج عام 1958، وتسعين في المائة زيادة منذ عام 1952.

لماذا أصبح التلفزيون الذي اتسم باللاعنف نسبياً في بدايته، مرتعاً لمشاهد الجريمة والأذى بالتدريج كما هي حاله الآن؟ هل بات الناس أكثر ولعاً بالعنف اليوم مما كانوا عليه عام 1950؟

إن الإجابة على السؤال الأول بسيطة: الناس يريدون العنف على شاشة التلفزيون. فنظام تصنيف البرامج الذي يراقب بصورة فعالة ما تقدمه شاشة التلفزيون القومي، بيّن أن الجمهور يفضل بانتظام اختيار البرامج العنيفة على البدائل الأكثر هدوءاً. ومن الواضح أنه لا توجد مؤامرة شريرة خطط لها معلنون أراذل مع المديرين التنفيذيين للشبكات من أجل تدمير الأخلاقيات والقيم الأمريكية، عن طريق تغذية المواطنين بجرعات مطردة من الموت والدمار.

فأثناء مشاهدة التلفزيون يستفيد الراشد، كما هي الحال مع الطفل، من الفرصة المتاحة أمامه بسهولة للانسحاب من عالم النشاط إلى دنيا اللاعمل، واللاتفكير، واللاوجود المؤقت، في واقع الأمر. لكن المشاهدين لا يختارون مشاهدة البرامج المهدئة، الباعثة على الاسترخاء من خلال شاشة التلفزيون، على الرغم من أن هدفهم الرئيسي من المشاهدة غالباً ما يكون تحقيق الهدوء والاسترخاء. وبدلاً من ذلك فإنهم يؤثرون البرامج شديدة الهياج، الحافلة بأعنف الحوادث التي يمكن تخيلها، كحوادث الموت، والتعذيب، وتصادم السيارات، وكل ذلك بمصاحبة الموسيقى المسعورة. وتتحول الشاشة إلى مستشفى للمجانين بينما يستريح المشاهد في حالة من الهدوء التام تتسم بالمفارقة.

إن اختيار المشاهدين أكثر البرامج المحتملة حركة وإثارة يجعلهم قادرين على الاقتراب من الشعور بالحركة، مع كل أحاسيس المشاركة، في الوقت الذي يستمتعون فيه بالسلامة والأمن اللذين تتيحهما لهم السلبية الشاملة.

إنهم يستمتعون بمحاكاة النشاط آملين أن يعوضهم ذلك عن حقيقة اندماجهم في تجربة سلبية، أحادية الاتجاه.

وما دام قد تم الاعتراف بجاذبية العنف التلفزيوني كتعويض عن السلبية المفروضة لدى المشاهد، يمكن فهم الزيادة التدريجية للعنف على شاشة التلفزيون خلال العقود الأخيرة. ففي تلك الفترة لم تزد فحسب حيازة التلفزيون بصورة هائلة، بل بدأ الناس إنفاق المزيد من الوقت على المشاهدة التلفزيونية أيضاً.

الواقع والوهم

إن فكرة أن التجارب التلفزيونية يمكن أن تفضي إلى شعور بالنشاط، وأن المرء يمكن بصورة ما أن ينخدع شعورياً بأنه يعايش بالفعل تلك الحوادث التلفزيونية تثير سؤالاً بالغ الأهمية حول التجربة التلفزيونية: ما هو تأثير التعاطي المتواصل للواقع المقلد في إدراك المشاهد للواقع المعيش؟

لقد درس اثنان من أساتذة كلية أننبرج للاتصالات بجامعة بنسلفانيا، وهما لاري جروس وجورج جيربنر بعض تأثيرات «الواقع» التلفزيوني في أفكار الناس ومعتقداتهم، فيما يتصل بالعالم الحقيقي. وتشير نتائج

أبحاثهما على أن التجربة التلفزيونية تؤثر تأثيراً مهماً في الإدراكات الحسية الواقعية للمشاهدين.

وقد طرح جيربنر وجروس أسئلة معينة عن العالم الحقيقي على أشخاص كثيري المشاهدة لبرامج التلفزيون وعلى آخرين قليلي المشاهدة وطرح اختبار الاختيار من متعدد Multiple-Choice quiz إجابات دقيقة علاوة على إجابات عكست خصيصة متحيزة لعالم التلفزيون. واكتشف الباحثون أن الأشخاص كثيري المشاهدة للتلفزيون اختاروا الإجابات المتحيزة للتلفزيون على نحو يفوق بكثير اختيارهم الإجابات الدقيقة، بينما كان الأشخاص قليلو المشاهدة أقرب إلى اختيار الإجابات الدقيقة.

لم يلعب التعليم دوراً ذا مغزى في تحسين تشوهات الواقع الناجمة عن المشاهدة التلفزيونية الكثيرة. ففي غالبية الحالات تشابه الأفراد المتعلمون في الكليات مع أولئك الحاصلين على تعليم ابتدائي لا غير في اختبار الإجابات المتحيزة للتلفزيون.

ليست المفاهيم غير الصحيحة عن العالم الحقيقي لدى المشاهدين وليدة نشرات إخبارية مضللة أو برامج واقعية. فهذه المفاهيم الخاطئة تنبع من المشاهدة المتكررة للبرامج الخيالية التي يتم تنفيذها بأسلوب واقعي وضمن إطار واقعي. وتبدأ هذه البرامج، كما يظهر للعيان، في اتخاذ شكل الواقع المشوش لدى المشاهد، تماماً مثلما يحدث أحياناً حين يخلق حلم شديد التأثير تشويشاً بشأن ما إذا كانت واقعة لاحقة حلماً أم أنها حدثت بالفعل. فبعد أن يرى المشاهدون العنف يوزع عليهم يوماً إثر يوم في برامج التلفزيون، يدمجونه في واقعهم، على

الرغم من أنهم في أثناء المشاهدة يعرفون أن البرامج من نسج الخيال.

تبليد الحساسية

قد يثير الانزعاج أن التجربة التلفزيونية لم تلق فقط ظلالاً معتمة على الفروق بين الواقعي والوهمي لدى المشاهدين المثابرين، بل إنها بفعل ذلك أصابت بالتبلد قدرتهم على الإحساس بالحوادث الحقيقية. ويرجع ذلك إلى أنه حين تتناقص واقعية موقف ما تصبح قدرة الناس على الاستجابة له أقل انفعالاً، ويكونون أشبه بالمتفرجين.

وعند مشاهدة مجموعتي الأولاد حلقة مدتها 8 دقائق من فيلم كيرك دوجلاس عن الملاكمة، «البطل» Champion، تم تسجيل الاستجابات الانفعالية للأولاد على فيزيوغراف، وهو جهاز لا يختلف عن جهاز كشف الكذب الذي يقيس حركة القلب، والتنفس، والتعرق، واستجابات الجسم الأخرى.

وطبقاً لردود أفعالهم كما سجلها الجهاز، كان الأولاد الذين قضوا وقتاً طويلاً في المشاهدة التلفزيونية أقل انفعالاً بما شاهدوه بصورة واضحة. وكما خلص الباحثون، فإن هؤلاء الأولاد كانوا قد تعودوا على الأحداث المثيرة للانفعال على شاشة التلفزيون إلى حدٍّ أن قدرتهم على الإحساس اعتراها الكلل. ولما كانوا قد شاهدوا الكثير من البرامج التلفزيونية العنيفة حتماً في غضون الاثنتين والأربعين ساعة أسبوعياً، فقد افترض الباحثون أن تبلد حساسيتهم desensitization كان أحد تأثيرات التعرض المستمر لمضامين العنف على شاشة التلفزيون.

وقد ركز د. كلاين في كتاباته اللاحقة جلّ همه على انتقاد العنف في التلفزيون. وفي مقالة له تحت عنوان «العنف التلفزيوني كيف يؤذي أطفالكم» اختتم تحذيراته بشأن أخطار العنف التلفزيوني بنداء من أجل برامج أفضل، بل إنه أثنى في معرض كلامه على برامج مثل «The Walton's».

على أن الأطفال الذين بنى د. كلاين استنتاجاته على ردود أفعالهم الانفعالية المتناقضة كانوا يشاهدون 42 ساعة أو أكثر أسبوعياً على شاشة التلفزيون، بينما الأطفال الذين لم تتبلد ردود أفعالهم لم يشاهدوا التلفزيون بالمرة تقريباً.

نوع جديد من المجرمين

تحتاج تجربة د. كلاين إلى جهاز حساس لقياس الاستجابات الانفعالية، أو الافتقار إليها، لدى الصغار موضوع دراسته. فتأثيرات المشاهدة التلفزيونية في الإدراكات الحسية للأطفال الأسوياء واستجابتهم لمواقف الحياة الحقيقية دقيقة بالتأكيد وقابلة للقياس عن طريق جهاز معايرة ممتاز فقط، إذا أمكن ذلك. إلا أن هناك موقفاً مختلفاً يغلب على الأطفال ذوي الخلفيات المرضية. ذلك أن المشاهدة التلفزيونية قد تؤثر في هؤلاء الأطفال بدرجة أكثر عمقاً.

جاء في ملاحظة كتبها أحد الاختصاصيين في علاج الأطفال:

«إنني أخلص إلى أن مشاهدة التلفزيون أشد تدميراً للأطفال الذهانيين Psychotic Children. فالشيء الوحيد الذي أريد مساعدتهم على فهمه هو

العالم الحقيقي، وزيادة وعيهم بالواقع، والسبب والنتيجة. وهذا الذي أريده هو ما يتعرض لأشد الضرر بفعل لا منطقية شخصيات الرسوم المتحركة القادرة على الطيران في الهواء، مثلاً، أو تلك الأشياء العجيبة التي تبدو جدّ حقيقية على شاشة التلفزيون. إن لبعض هؤلاء الأطفال خيالات غير محدودة القدرة. فهم يظنون أن بمقدورهم الطيران أيضاً، وهم يرون أحد الأشخاص يحرك يده بسرعة وقوة فيتلاشى على الفور شخص آخر، وهو ما يعزز خيالهم اللامحدود في نهاية الأمر».

إن ملاحظة أن التلفزيون يشوه الواقع بالنسبة لطفل مضطرب بدرجة أكبر مما هي الحال مع الطفل السوي، قد تكون ذات علاقة بوباء جرائم الأحداث في العقود الأخيرة. إذ مما لا ريب فيه أن الأطفال المتورطين في جرائم خطيرة في أيامنا هذه غير أسوياء. وتكشف بيانات حياتهم بلا استثناء عن خلفية من الفقر، والتفسخ، والإهمال، والفشل الدراسي، والإحباط، والمرض العائلي... والمشاهدة التلفزيونية لفترات طويلة. غير أنه بينما لم يظهر الفقر والمرض العائلي لأول مرة في المجتمع الأمريكي في السبعينيات، ظهر نسل جديد مرعب من الأحداث المسيئين. كتب أحد المراسلين الصحفيين في جريدة نيويورك تايمز يقول: «لكأن مجتمعنا قد أنتج سلالة جينية جديدة، الطفل ـ القاتل الذي لا يشعر بأي ندم ونادراً ما يعي تصرفاته».

وفي تواتر رهيب، تروي الصحف عن جرائم الأحداث التي تملأ قلوب القراء العاديين رعباً واستنكاراً: اثنان من قطاع الطرق أحدهما في العاشرة من العمر والآخر في الثانية عشرة يسرقان الكهول، ثم، عرضا،

يستديران ويقتلان الضحايا الضعاف؛ ومن أجل كسب هزيل في غالب الأحيان، شبان يهاجمون بعنف راكب دراجة هوائية في أحد المتنزهات ويضربونه بسلسلة حتى الموت قبل أن يهربوا بدراجته؛ أطفال يقتحمون إحدى الشقق ويطرحون أحد المسنين أرضاً ويغرقون امرأة في حوض الاستحمام.

العنف والمشاهدة

العنف غير المرئي[1]

بعد نحو شهر من موافقة مجلس الأمن القومي في الولايات المتحدة على شن الحرب على العراق عام 1991 بسبب ذلك الغزو للكويت، نشر بودريار مقالاً بعنوان «حرب الخليج لن تحدث»، ثم كتب مقالين صغيرين آخرين بعنوان «هل حدثت حرب الخليج فعلاً؟»، و«حرب الخليج لم تحدث فعلاً»، وقد كانت تلك عناوين مثيرة فعلاً، لأننا جميعاً نعرف أن حرب الخليج قد حدثت فعلاً، وأنه تم طرد صدام وقواته من الكويت. لكن ما كان يقصده بودريار يمكن فهمه فقط في ضوء أفكاره حول الصور المحاكية والمحاكاة والصور غير ذات الأصل المحدد، وكذلك دور وسائل الإعلام، وأهمها التلفزيون، في هذا الأمر.

لقد كانت حرب الخليج الثانية أو حرب تحرير الكويت حرباً متلفزة بدرجة فائقة، وقد حظيت هذه الحرب بأكثر أشكال التغطية من وسائل الإعلام بشكل يفوق أي حرب أخرى سابقة عليها، وهكذا تدفقت المعلومات الكثيفة حول التغيرات الجوية وأحوال الطقس خلال فصول السنة، والبيانات الخاصة بطبيعة التسلح، أو أنواع الأسلحة، وأعداد

---

(1) شاعر عبد الحميد، عصر الصورة، عالم المعرفة، الكويت 2005، ص 406.

الجيوش، وأعداد السكان، وما شابه ذلك من المعلومات حول منطقة الخليج العربي خاصة والمنطقة العربية عامة. وقد حدث الأمر نفسه في حرب أفغانستان بعد ذلك، وفي مثل هذه التغطية المعلوماتية المكثفة، وهذا الفيض الكبير من المعلومات والصور يجد بودريار ضالته، يجد ما يقوله عن نفيه ـ الفلسفي ـ لحدوث الحرب، ففي حرب الخليج وحرب أفغانستان كانت صور الحرب متميزة في كونها تنقل إلى البشرية من أماكن بعيدة، لقد كانت تلك مشاهد بصرية لم يشاهد البشر مثلها من قبل، فالصواريخ والقنابل الذكية المزودة بكاميرا تنقل المشاهدين إلى قلب عمليات التدمير ذاتها، لكن ليست هناك صور لضحايا أو موتى، وذلك لأن صور الموتى كثيراً ما كان يجري إبعادها عن الشاشات، لقد رأينا صوراً ولم نشاهد موتى أو ضحايا، رأينا مشاهد ولم نر حروباً كما لو كنا رأينا صوراً محاكية، صوراً لا تنتمي إلى أصل محدد، جرى توظيفها بدقة كي تبدو حقيقية، إنها تمثيلات للحروب وليست الحروب ذاتها، إنها لا تتفق مع ما اعتاد الناس على أن يفعلوه أو يعتقدوه حول الحروب، لقد كانت حرب فيتنام شهيرة لأنها حدثت في غرف معيشة الناس، وسيطرت على حياتهم، أما هذه الحروب الأخيرة فقامت بالخطوة التالية وأصبحت أحداثاً مبرمجة، برامج يجري تصميمها وتنفيذها وعرضها ومشاهدتها على هيئة صور متدفقة يومياً، وبهذا المعنى تكون هذه الحروب بالمعنى التقليدي لم تحدث بعد، أو لن تحدث أبداً. إنها حروب تحدث عبر الواقع الأعلى، عبر عالم الصورة، إنه عالم يختلط فيه الواقع بالخيال ويتم التلاعب فيه بالحقائق وبالصور،

ويستبق الافتراضي فيه حدوث الواقعي ويسبقه، ويكون الزمن الافتراضي فيه سابقاً على الزمن الواقعي، عالم تختلط فيه الصور بالواقع، وبشكل لا يمكن الفصل فيه بينهما. بدءاً من التدريب على خطة افتراضية للحرب إلى تنفيذها إلى عرضها من خلال شاشات التلفزيون والانترنت، ومع ذلك، وعلى رغم ما يقوله بودريار فإن حرب الخليج الأولى قد حدثت، كما حدثت حربا الخليج الثانية والثالثة أيضاً، ومات بشر كثيرون في تلك الصراعات وما زالوا يموتون في عالم تتقاطع فيه القوى والمصالح وتتشابك، ويختلط فيه عالم الواقع بعالم الصور[1].

إن حروب الخليج كانت حروباً بصرية، كما قال دوبريه، ومن ثم كانت حرباً لا مرئية ومن دون آثار لدى المقيمين في الغرب خاصة، وكانت حرب فيتنام حرباً بالصور لأننا كنا نرى فيتناميين وأمريكيين بأرجلهم ووجوههم وظهورهم ليس لهم طابع التمثيلية والتفويض والإنابة، في وضعية حرب وبثيابها وقد عرضها من خلال شاشات التلفزيون والانترنت.

إن ادعاء بودريار بأن حرب الخليج عام 1991 لم تقع على أي أرض مادية فعلية فكرة متهاوية، ففكرة أن ميتاً ما لم يجرِ تصويره يظل في كل الأحوال ميتاً، أو أن صاروخ توماهوك ليس سوى علامة رادار على شاشة مراقبة، لم تعد فكرة بديهية في العصر البصري، لذلك لم يعد لها أي تأثير، فالصواريخ للتدمير والحروب للموت.

---

(1) المرجع السابق، ص407.

تقدم التغيرات التي حدثت في عالم الألعاب الرياضية مثالاً آخر لتأثير التلفزيون، وقد شاهدنا أخيراً البث الحركي للألعاب الرياضية المتنوعة بأشكال بارعة ومشوقة وجذابة وممتعة في دورة الألعاب الأولمبية في أثينا، عاصمة اليونان، خلال شهر أغسطس 2004، وشاهدنا كيف تفاعل الجمهور داخل الملاعب وخارجها مع هذا الحدث العالمي، ورأينا نقل التلفزيون لاستجابات شعوب كثيرة وردود أفعالها تجاه فوز وانتصارات فرقها أو لاعبيها أو هزائمهم. وشاهدنا الإعلانات الضخمة والكثيرة المصاحبة لبث القنوات الفضائية لهذه الألعاب الرياضية، وسمعنا عن الأرقام الضخمة من الأموال التي دفعتها شبكات التلفزيون من أجل الحصول على حق البث لهذه الألعاب دولياً، وعرفنا أيضاً أن اليونان نفسها قد أنفقت نحو عشرة بلايين دولار حتى تجهز ملاعبها وشوارعها وفنادقها، وطرقها... الخ، بما يناسب هذا الحدث الدولي الذي توقعت أن تحصل من خلاله على فوائد مادية ومعنوية ووطنية كثيرة وقد حدث.

إن التلفزيون له تأثيره الكبير دون شك ـ في التلاعب باتجاهات الناس وقيمهم ـ وفي التأثير في سلوكهم. فالتلفزيون يؤثر في السلوك والأفكار واللغة والأزياء، وهو يستمد تأثيره من قوته على الإيحاء بما هو طبيعي ومرغوب ومهم، وأحياناً ما تكون هذه التأثيرات إيجابية، وأحياناً تكون سلبية، إنه الأداة الأساسية الآن في الحرب وفي السلام، وفي البناء وفي الهدم أيضاً.

التلفزيون وتأثيراته[1]

لقد تبين أن التلفزيون قد أوجد حالات من الشعور بالظلم وعدم الرضا بين تلك الجماعات، التي تقارن حياتها فتجد أن مستويات عيشها أقل بكثير من مستويات الرفاهية التي تُعرض على الشاشة. هكذا يبدو التلفزيون في نظر البعض أشبه بالمؤسسة التجارية العامة التي تستخدم الإعلانات، وتؤكد على برامج التسلية العامة بهدف تحقيق الربح، ومع أنه كان محصلة للنمو الطبيعي في التكنولوجيا، إلا أنه في الواقع هو نتيجة للتنظيمات السياسية والاقتصادية المهيمنة على المجتمعات الرأسمالية التي تتطور آلياتها ومداخيلها بفضل استمرارية الاستهلاك. منذ أواخر ستينيات القرن العشرين قام جورج جيربنر وزملاؤه بسلسلة من الدراسات التحليلية المكثفة حول ما يحدثه التلفزيون، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد قام هؤلاء الباحثون بالتسجيل على شرائط فيديو لآلاف من البرامج والشخصيات التلفزيونية التي يشاهدها الناس في وقت الذروة. وقد أشارت هذه النتائج بشكل عام إلى أن العالم الذي يُصوَّر على شاشة التلفزيون هو ـ وإلى حدٍّ كبير ـ عالم مضلل في تمثيله للواقع، لكن ما يحدث هو أن الناس يأخذون ما يظهر على شاشات التلفزيون مأخذ الجد ويعتقدون أنه انعكاس للواقع.

ففي هذه البرامج ظهر الذكور أكثر من الإناث بمعدل 1:3 وجرى تصوير النساء في كثير من هذه البرامج والمسلسلات على أنهن أصغر

(1) المرجع السابق، ص408.

سناً من الرجال الذين يقابلنهم. وكان هناك تمثيل أقل أيضاً للجنسيات الأخرى (خاصة الذين من أصول إسبانية) وللأطفال الصغار وللمسنين، وكثيراً ما يظهر الأفراد الذين ينتمون إلى أقليات في أدوار اجتماعية أقل قيمة كما أن كثيراً من الشخصيات التي تُعرض في وقت الذروة يكون أصحابها من المهنيين، ومن المديرين وأصحاب الوظائف المتميزة، هذا مع أن 67٪ من قوة العمل في الولايات المتحدة هم من العمال الحرفيين الذين يقومون بوظائف خدمية. وقد جرى تمثيل 25 في المائة من هذه الوظائف داخل السياق الخاص بالشخصيات التلفزيونية. وأخيراً فقد كان معدل الجرائم المعروضة على الشاشة أكثر بنحو عشر مرات من الجرائم الموجودة في الواقع الحقيقي. فالصبي المراهق الذي يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً تبين أنه يرى أكثر من ثلاثة عشر ألفاً من عمليات القتل على الشاشة قبل أن يصل إلى هذا العمر. ونحو نصف الشخصيات التي يعرضها التلفزيون تكون متورطة في مواجهات عنيفة كل أسبوع، في حين أن النسبة الواقعية هي أن أقل من 1 في المائة من الجمهور هم ضحايا للعنف الإجرامي وفقاً للإحصاءات التي قدمتها وكالة المخابرات الأمريكية.

كذلك قارن جيربنر وزملاؤه بين اتجاهات هؤلاء الذي يشاهدون التلفزيون بكثرة (أربع ساعات فأكثر كل يوم، وهؤلاء هم المكثرون) بهؤلاء الذين يشاهدونه بدرجات أقل (ساعتين فأقل كل يوم، وهؤلاء هم المقلون)، فوجدوا أن المشاهدين المكثرين:

1 ـ يعبرون عن اتجاهات تعصب عرقي أكثر.

2 ـ يعلون من تقديرهم للأفراد الذين يعملون في مهن كالطب والمحاماة والألعاب الرياضية.

3 ـ يقدرون المرأة على أنها تمتلك قدرات واهتمامات محدودة مقارنة بالرجال.

4 ـ يتمسكون بوجهات نظر أو آراء متطرفة فيما يتعلق بأسباب انتشار العنف في المجتمع.

5 ـ يعتقدون أن الأفراد المسنين هم اليوم أقل عدداً وأقل صحة عما كانت عليه حالهم منذ عشرين عاماً، هذا مع أن العكس هو الصحيح.

6 ـ يميلون إلى رؤية العالم على أنه مكان يمتلئ بالخطايا والخاطئين بشكل يفوق ما يعتقده المقلون في المشاهدة.

7 ـ يوافقون على أن معظم الناس يبحثون عن مصالحهم وأنهم ـ أي الناس ـ يقومون باستغلالك لو أتيحت لهم الفرصة لذلك.

وقد استخلص جيربنر وزملاؤه أن هذه الاتجاهات والمعتقدات تعكس صورة غير دقيقة عن الحياة الأمريكية التي يقدمها التلفزيون.

لقد ظهرت مثل هذه الصورة أيضاً في دراسات أخرى حول مشاهدة التلفزيون، وصورة العالم من خلال فحص بعض الأنشطة التي يعرضها التلفزيون ومنها ـ تمثيلاً لا حصراً ـ السلوك الإجرامي، فقد أشار بعض الباحثين، أمثال كريج هاني C. Haney، وجون مانزولاتي J. Manzolati إلى أن العروض التي تجسد الجريمة على شاشة التلفزيون تنشر صورة متسقة حول الشرطة وكذلك حول المجرمين. فصورة رجال الشرطة

ليست واقعية، بل هي صورة نمطية يجري تصويرهم من خلالها على أنهم أشخاص عطوفون متفهمون بدرجة مذهلة، قادرون على حل معظم الجرائم، كما أنهم لا يخطئون على نحو مطلق بما يتعلق بجانب واحد فقط هو: ألا يكون الشخص المذنب موجوداً في السجن في نهاية العرض أو المسلسل أو الفيلم. إن التلفزيون يتبنى هنا نوعاً من الخداع أو الإيهام الخاص باليقين، والتأكد فيما يتعلق بمحاربة الجريمة، إنه أحادي النظر، مركزي التفكير، لا يرى احتمالات أخرى للأمر في ضوء الاحتمالات الكثيرة المتعددة لهذا الأمر في الواقع، ويتجه المجرمون نحو الجريمة ـ على شاشات التلفزيون ـ بسبب أمراض واضطرابات نفسية، أو بسبب شره (غير ضروري وغير مبرر) لا يمكن إشباعه، ويؤكد التلفزيون المسؤولية الشخصية للمجرمين عن أفعالهم، ويعفي المجتمع من أدنى مسؤولية، كما أنه يتجاهل الضغوط الموقفية التي قد يخضعون لها وتدفعهم إلى الجريمة، مثل الفقر والبطالة.

تتضمن مشاهدة التلفزيون في زماننا هذا أيضاً المشاهدة أو التعرض للعنف والمعاناة والموت. وسواء حدث هذا عبر أشكال البرامج التوثيقية أو الروائية (المتخيلة)، فمن الصعب تجنب مشاهد الموت الحقيقي أو المخلق المبتكر. إن هذا يحدث في عالم أو سياق يجري فيه عزل أو إبعاد الخبرة الواقعية الخاصة بالموت على نحو متزايد. لقد وصفت سلافنسكا دراكوليك S.Drakulic التغطية الإخبارية لموت طفلة صغيرة في سراييفو، حيث اقتربت الكاميرا كثيراً من مشهد الموت وصورت لقطات قريبة من عيني والدة هذه الطفلة. فقالت دراكوليك:

«عادت الكاميرا إلى هاتين العينين مرات عديدة، وبحثت عن أمها الجريحة في المستشفى: هذه هي النهاية، إن الكاميرا لا تستطيع أن تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في تصويرها لمعاناة الأم التي فاقت الحدود عندما فقدت طفلتها. إن هذا ينبغي أن يتوقف، هذا ما قلته لنفسي عندما بدأت الكاميرا حركتها إنني لا أريد للكاميرا أن تدخل تحت ذلك الغطاء الذي يغطي الجسد الصغير المسجى، لكن يد أحدهم سبقت أفكاري ورفعت الغطاء الأبيض عنه. لقد رأينا لقطة مقربة للموت. ثم انقطع المشهد».

في البوسنة ـ يقول روبنز ـ رأينا كل شيء: جثثاً مقطوعة الرؤوس، تأكلها الخنازير والكلاب، عيوناً منتزعة من أماكنها، أطفالاً وأشلاء مبعثرة لا تنتمي إلى فرد بعينه أو إلى شيء بعينه، هياكل عظمية وجماجم محطمة، أطفالاً بلا سيقان، رضعاً قتلهم رصاص القناصة، طفلة في الثانية عشرة تم اغتصابها وتتحدث عما جرى لها أمام الكاميرا. لقد رأينا ذلك كله، رأيناه في أثناء مشاهدتنا للبرامج الحوارية والألعاب الرياضية وقناة تلفزيون الموسيقى MTV، لكننا شاهدنا كل ذلك القتل والدمار أيضاً. وقد قمنا بالاستهلاك لكل هذا العري الإباحي المفزع الخاص بالموت Pornography of Dying أيضاً من خلال أجهزة التلفزيون التي نملكها وبكل إرادتنا فيما يبدو، حيث تعرضت عقولنا وانفعالاتنا لهذه الصدمة الخاصة بهذه الأحداث المأساوية التي قدمها تلفزيون مضاجعة الموتى Necrophilia television هذا.

إن ما يحدث هنا، على رغم بشاعته، قد يشتمل على رغبة خاصة

في المعرفة والفهم، لكنها رغبة تتم على مبعدة وعلى مسافة، رغبة ينبغي ألا تقف عند مرحلة الرغبة، بل ينبغي أن يعقبها استنكار واستهجان لما يقوم به الإنسان في حق أخيه الإنسان، يذكرنا ريجيس دوبريه في كتابه «حياة الصورة وموتها» بأن مثل هذا التلفزيون قد فتح قلوبنا وعقولنا على المعاناة والقمع اللذين لم يكونا قابلين للرؤية هكذا من قبل، وأنه بفعل هذا قد خلق نوعاً من الرأي العام العالمي الذي له تأثيره الخاص عبر العالم، فالرأي قد يتحول إلى تعاطف، والتعاطف قد ينقلب إلى اهتمام نشيط فعال.

يقول باحثون آخرون إن هناك أسباباً أخرى قد تفسر تلك المبالاة التي قد يشعر بها بعضنا إزاء ما يشاهدونه من أحداث مؤلمة ودمار وموت، وترتبط بعض هذه الأسباب بعامل البقاء على قيد الحياة، فنحن نحيا كما يقال من خلال موت الآخرين، أو بعبارة أخرى، فإن الرعب عند مشاهدة الموت يتحول لدى بعضنا إلى نوع من الرضا السري الضمني الخبيث، لأن شخصاً آخر هو الذي مات ونحن ما زلنا نحيا. لقد حدث الموت على مبعدة منا ونحن قد شاهدناه داخل الإطار الخاص بالتلفزيون، على الشاشة، مسبوقاً أو ملحوقاً بأعمال فنية وكوميديا ورياضة وأغانٍ، إنه مثلها نوع من المشاهد والصور والألعاب، مثلما نشاهد أعمال القتل والموت في المسرحيات والأفلام فتتكون بداخلنا خبرة بديلة. إن ما يحدث لغيرنا، على مبعدة منا هناك، على الشاشة، إنه صورة ترى وقد يكون هناك استمتاع بها، إنها تحدث بشكل مستمر، ومن خلال التعرض المستمر لها قد يحدث الاعتياد عليها، في

البداية قد تثير الألم والتعاطف، ولكنها تدريجياً، ومع التعود، تصبح عادية. إن حواسنا قد انخفضت وحب استطلاعنا قد انطفأ، فبعد التعرض يجيء الاعتياد أو التعود وبعد الاعتياد قد يجيء النفور، وهذا سر من الأسرار الغريبة والسلبية لعصر الصورة.

إننا هكذا نرى الواقع من خلال الشاشة، داخل إطارها، ولا نراها خارجها، ما نشاهده هو الواقع داخل الشاشة، واقع الشاشة وليس شاشة الواقع. إن الشاشة التي تقدم المعلومات حول واقع العالم شاشة تعمل أيضاً ضد الصدمة الخاصة بالرؤية والمعرفة للواقع.

إن المشاهدين لهذه الصور يهربون هكذا من التأثيرات الانفعالية والأخلاقية ومشاعر العجز المترتبة على الرؤية والمعرفة والانشغال الفعلي بمثل هذه الأحداث، إنهم هكذا يوقفون آليات الاندماج الفعلي مع الواقع الذي تمثله، ومن ثم يقفون على مسافة منه ويتأملونه وقد يكتفون بكلمات قليلة يعبرون من خلالها عن حزنهم على ما يحدث أمامهم، ثم يحولون القناة التي تبث مثل هذه المشاهد إلى قناة أخرى خفيفة ومرحة، وقد يبحثون عن طعام أو شراب يتناولونه وهم يشاهدون هذه القناة الجديدة.

إن ما يحدث هنا ليس هو رغبة في المعرفة، بل رغبة في تجنب المعرفة أو تحاشيها كما يقول روبنز، والابتعاد عن كل ما لا نريد أن نراه أو نسمعه، وذلك لأن المعرفة مؤلمة والتجاهل مريح، المعرفة مخيفة ولها آثارها المزعجة الضارة، في حين قد تكمن الراحة في التجاهل والتناسي أو محاولة النسيان.

إننا هكذا نحاول أن نتجنب العجز المكتسب واليأس المكتسب المرتبط بالمعرفة، أن نعرف تلك الحقيقة الخاصة بأننا نعرف شيئاً سيئاً ومخيفاً، لكننا لا نملك إمكان تغييره، وهكذا لا نريد أن نعرف كي لا ننزعج، وكي لا نصاب بمزيد من اليأس.

هكذا تنشط أجهزة الرقابة على برامج التلفزيون، وعلى النشرات الإخبارية بحيث لا تسمح إلا بقدر يسير من الصور المؤلمة، ومن مشاهد الموت والدمار المزعجة، ويتم توجيه المراسلين بألا يرسلوا بصور وتقارير مزعجة من الأماكن الساخنة في العالم. هكذا يستطيع الناس مواصلة المشاهدة لبرامج التلفزيون والاستمرار في حياتهم والقيام باتصالات هاتفية مع بعض البرامج يطلبون الأغاني ويهدون الأمنيات الطيبة إلى أحبائهم وأقاربهم، هكذا يستمر الجو صحواً بوجه عام وتستمر الحياة، على رغم كل ما يحيط بها من علامات على الموت، هكذا يستمر الاستلاب العام في عالم الصور والمرئيات.

إننا مثلما قد نسعى وراء المعلومات والمعرفة والعلم من خلال التلفزيون، قد نلجأ أيضاً إلى تجنب المعرفة والمعلومات والصورة التي تقدم من خلاله. هكذا تكون خبرة التفاعل مع الصور خبرة متناقضة وجدانياً ومعرفياً Ambivalent لأنها تسعى في اتجاه معين، وتسعى في الوقت نفسه في اتجاه نقيض له، تسعى من أجل المعرفة وتخاف من المعرفة في الوقت نفسه، تسعى وراء الصور وتتحاشى مشاهدة الصور أو تأملها في الوقت نفسه. تسعى إلى الاندماج في عالم الصور وفي خبرات تفاعلية معها، وتمضي في طريق التحاشي للصور والابتعاد عنها

في الوقت نفسه، صحيح أن الصور التي نسعى إلى الاندماج معها قد تكون صوراً متخيلة، ممتعة وخيالية في المقام الأول، وتكون الصور التي نتحاشاها واقعية ومؤلمة في المقام الأول أيضاً، لكن عمليات الاندماج والتحاشي قد تتعلق أيضاً بصور واقعية؛ صور لحروب وموتى ودمار يكون الإنسان مندمجاً في الاهتمام بها في بداية التعرض لها ثم تدريجياً يتحول من الاندماج إلى التعود، ثم التحاشي كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، كأن الأمر أشبه بالخبرة الفصامية أو الخبرة المنقسمة التي تشكل اتصالاً وانفصالاً في الوقت نفسه، أو اقتراباً وابتعاداً في آن واحد، تكاملاً وتفككاً في الوقت نفسه، وداخل الشخص نفسه أيضاً.

في البداية نرى وندمج ونفكر ونفعل لكننا ـ وعلى نحو تدريجي ـ نرى ولا نندمج ولا نفكر ولا ننفعل، بل ننفصل، هكذا نفقد تدريجياً اتصالنا الخاص بالواقع، واقعنا الخاص ولا نرغب في الرؤية أو الاندماج. هكذا تهجر أعيننا ـ كما يقول دوبريه أكثر فأكثر بدن العالم، وتقرأ الخطوط بدل رؤية الأشياء. فكما هو الأمر مع المنتوجات الاصطناعية، التي تجعل تبعية الصناعة للمواد الأولية تقل يوماً عن يوم، فكذلك تقل تبعية صورنا للواقع الخارجي». إن البصري صالح ـ كما يقول دوبريه ـ أيضاً، لكنه أيضاً صالح كي يمنعنا من النظر إلى الآخرين، وبالأخص منهم الأفراد الذين يصبحون مؤشرات تعويضية عن الجماعات البشرية، ففي ثقافة البصر بدون ذات، الثقافة المكرسة للموضوعات الافتراضية، يغدو الآخر جنساً آيلاً للانقراض، والصورة نفسها. إنها نرجسية تكنولوجية، أي انكفاء «طائفي» للتواصل على

صورته. هكذا تحل العلامة محل الصورة، وتحل الصورة محل الواقع، ويصبح الواقع موجوداً في إطار، يصبح موجوداً بشكل جزئي، وبشكل مؤقت يجري استهلاكه ونسيانه أو الابتعاد عنه وتناسيه، وتظل آلية الإلحاح مستمرة، وتظل آلية النسيان والتغييب مستمرة في مواجهتها أيضاً.

في فيلم «هنري» صورة شخصية لقاتل معاود Henary a Portrait of serial killer: (من بطول مايكل روكر)، يسرق هنري وصديقه أوتيس كاميرا فيديو ويستخدمانها في تصوير أنفسهما في أثناء قيامهما بتعذيب وذبح ضحاياهما الذين ينتمون إلى عائلة مرفهة. بعد ذلك يعودان إلى مسكنهما ويعيدان عرض ومشاهدة أفعال القتل السادية التي قاما بها. «لقد كنت أريد أن أراها ثانية»، يقول أوتيس ذلك، الذي كان يحب الفيديو وصوره بدرجة كبيرة إلى درجة أنه استغرق في النوم وهو يشاهد هذه الصور.

هكذا يجري الربط بين الأفعال السادية المرتبطة بالقتل وإيذاء الآخرين والاستمتاع بذلك وبين أفعال الرؤية والمشاهدة للصور، ويصل الأمر ببعض الباحثين في مجال الصورة مثل روبنز إلى القول إن عمليات القتل تشتمل على مشاهدة واختلاس للنظر، وكل أفعال الاختلاس للنظر والمشاهدة تشتمل على سادية من نوع ما. إنها آلية تقسم الذات إلى قسمين: قسم يقوم بالفعل، وقسم يشاهد القسم الآخر من الذات، وهو يقوم بذلك الفعل، قسم يشارك وقسم يشاهد، ذات فاعلة واقعية Actor - self، وذات مشاهدة خيالية Spectator - self، ويكون القسم المشاهد

أقل انفعالاً واندماجاً لأنه يرى من مسافة على مبعدة من الحدث. وتكون الشاشة أو الكاميرا هي مجرد نقطة اتصال أو التقاء بين هذين القسمين من هذه الذات المنقسمة في ظل الخوف أو الحرب أو الشعور بالتهديد. إن التلفزيون يحصل على غذائه الخاص من الدماء والعنف والموت كما قال إيجانزيو رامونيه، ومن ثم يكون هناك خوف دائم لدى المشاهدين من أن يمتد الخوف الذي يشاهدونه على مبعدة منهم فيصل إليهم، ويصبح على مقربة منهم، أو يصبحون هم موضوعه وحادثه.

بعض الآثار الإيجابية والسلبية الأخرى للتطورات التكنولوجية في عصر الصورة

إضافة إلى ما ذكرناه سابقاً من تأثيرات إيجابية وسلبية لعصر الصورة في الجوانب النفسية والاجتماعية للإنسان، فإن هناك جوانب أخرى نذكرها باختصار وهي:

1 ـ هناك تخوف له ما يبرره من أن التغيرات التكنولوجية تجلب معها دائماً خوفاً من أن تحل الآلات محل العمال. وستعمل الميديا الحديثة والرقمية، مثلما عملت الاختراعات العلمية في الماضي، على تدمير ملايين الوظائف، لكنها ستخلق وظائف جديدة بدلاً منها. إن ما ينبغي أن تهتم به الأقطار النامية هو الوعي بالمدى الذي يمكن خلق الوظائف الجديدة عنده في بلادها.

2 ـ من وجهة نظر الصناعات السمعية والبصرية فإن العوامل البيئية تنقسم إلى عوامل تكنولوجية وعوامل سلوكية؛ وتمثل التغيرات

التكنولوجية الأساسية في تطوير الأجهزة السرعة في تزويد شبكات المعلومات بحصيلة قوية بالدقة ومن الألياف البصرية، والإمكانات الجديدة العالمية لنقل المعلومات من خلال الأقمار الصناعية، والانخفاض في تكاليف التخزين الرقمي وعمليات التشغيل ووفقاً لقانون مور فإنها تنخفض بمعدل 50 في المائة كل 18 شهراً، والتطور كذلك في تكنولوجيا التصوير الرقمي بالفيديو، وكذلك التكنولوجيا المنضغطة أو الصغيرة الحجم.

أما التغيرات السلوكية المهمة فهي: الألفة المتزايدة باستخدام لوحات المفاتيح الخاصة بالكمبيوتر أو غيره من الأجهزة، استخدام أجهزة الريموت كونترول والمحركات اليدوية للتفاعل مع الكمبيوتر والتلفزيون وآلات اللعب، والتقبل لأجهزة الاتصال المرئية التي تتجاوز أجهزة الاتصال التليفوني الصوتية، وذلك بسبب الخبرة المتزايدة بأجهزة الفاكس والبريد الإلكتروني والشبكة الدولية العنكبوتية، وكذلك الألفة بذلك التحكم المتزايد الخاص من جانب الفرد في خبراته الخاصة المتعلقة بالميديا، وهو تحكم ينبع أو ينبغي له أن ينبع مباشرة من أسعار شرائط الفيديو التي يستخدمها وما يدفعه من أجل القنوات التلفزيونية المشفرة، أو ما يدفعه من أجل مشاهدة بعض الأفلام على بعض القنوات... الخ. إن هذه المجموعة الكبيرة من التغيرات التكنولوجية والاجتماعية هي التي دفعت تلك الثورة الخاصة التي نشاهدها الآن، والمتعلقة بعصر الميديا الجديدة، والتي أبرزها دون شك ميديا الصورة.

تاريخياً، تطورت الميديا الجديدة على نحو تدريجي، من الطباعة

إلى السينما إلى التلفزيون، أما الميديا الحديثة فهي تتطور بشكل متسارع متلاحق، وتعتبر النزعة الرقمية Digitization هي القوة المحركة، لقد جعل هذا التطور من الممكن القيام باختزال النص والصوت والصورة التناظرية إلى معلومات رقمية يمكن نقلها بواسطة أجهزة توصيل مألوفة لنا. إن هذا هو ما يقف وراء عملية الاندماج الكبيرة بين صناعات الاتصالات والبث والكمبيوتر، إلى الحد الذي أطلق عليه جورج جيلدر G. Gilder الانهيار الكبير لصناعات الاتصالات المرئية والبث لمصلحة صناعة الكمبيوتر.

3 ـ الرقمية تدمر المسافات: أسهمت الثورة الرقمية في خفض التكلفة الخاصة بالاتصالات ونقل المعلومات، فالمعلومات الموجودة في الجانب الآخر من العالم أصبحت متاحة بوصفها معلومات مخزونة وقريبة يمكن الوصول إليها في أي وقت. لقد أصبحت المعلومات سلعة متاحة في الأسواق وبأسعار متهاودة في كثير من الأحوال.

4 ـ الانخفاض المستمر في تكاليف خدمات المعلومات: إن النفقات الحقيقية الخاصة باكتساب المعلومات الرقمية وتشغيلها وتخزينها ونقلها ستستمر في الانخفاض مع التطورات التي تحدث الآن بسرعة في التكنولوجيا المنضغطة أو الصغيرة، ومع اتساع الأسواق.

5 ـ حرية التداول وتهميش الاحتكار: في حين كانت الحكومات وجمعيات الحقوق والمصانع قادرة في الماضي على تنظيم التداول للمعلومات والحفاظ على احتكار بعض الأسواق، فإن القوى التي تقوم بذلك ستختفي مع التطور الخاص بظهور منافذ جديدة للاقتراب من

خدمات المعلومات. بالطبع سيكون هناك احتكار بالنسبة إلى الشركات التي تمتلك إنتاج التكنولوجيا العالية الجديدة وتسويقها، والتي يقل منافسوها. لكن هذه السمة ستنخفض تدريجياً، ومع ذلك سيظل الاحتكار موجوداً في مواجهة ذوي الدخول المنخفضة، وكذلك الجيران الأقل تعليماً من الناحية التكنولوجية.

6 ـ التركيز على الترفيه: أثبت الترفيه أنه مكون أساسي في هذا العالم الجديد المحتشد بالسلع والخدمات المتاحة على الانترنت، وهي ترفيه متاح ممتزج مع التجارة الإلكترونية، والتعاملات المصرفية، والتعليم والاتصال الهاتفي، والأمن المنزلي، وغيرها.

7 ـ تفضيل الفردي والعولمي: إن الاتجاهات الجديدة تؤكد أنها تخدم الفرد وتخدم المجتمعات أيضاً، فهي تنظر إلى مجتمع العولمة على أنه فضاء مشترك، لكن بالنسبة إلى نموذج الميديا الجديدة فإن الثقافة المشتركة يجري تبادلها بشكل جمعي من داخلها. وبالنسبة على الميديا التقليدية يجري فرض الثقافة المشتركة من خارجها. تنظر صناعة الترفيه إلى نفسها، مثلما رآها نقادها كثيراً، على أنها خالقة ثقافة العولمة، الثقافة التي تتكون من الصور والأصوات والرموز المشتركة بين الأفراد المستهلكين لها. إن هذا العالم الذي قد تكون الانترنت هي النموذج الأصلي له عالم يفضل التعامل مع الفردي والعولمي على أن يتعامل مع القومي والمحلي.

8 ـ يزعم ريتشارد بليك أن القرية العالمية التي زعم مكلوهان وجودها في الستينيات لم يعد لها وجود حقيقي منذ التسعينيات،

فالتطور التكنولوجي الذي استند إليه مكلوهان عند وصفه القرية العالمية في الستينيات استمر في مزيد من التطور بحيث أدى إلى تحطيم هذه القرية العالمية وتحويلها إلى شظايا... فالعالم الآن أقرب ـ في رأيه ـ على مجموعة من البنايات الضخمة التي تضم عشرات الشقق السكنية، التي يقيم فيها أناس كثيرون، لكن كلاً منهم يعيش في عزلة ولا يدري شيئاً عن جيرانه الذين يقيمون معه في البنايات نفسها. هكذا فإنه مع تعدد القنوات وتعدد الخدمات وإمكان الاختيار الفردي من بدائل عديدة أصبح لكل فرد وسيلته الخاصة ومن ثم زادت الفروق والاختلافات.

9 ـ عرض الصورة النمطية: الصورة النمطية هي مفهوم مهم في تحليل الميديا. وقد تطور المفهوم الحديث الخاص بالصور النمطية على يد وولتر ليبمان W. Lippman عام 1922 الذي كان مهتماً بثبات المعرفة الاجتماعية ونمطيتها، والتي اعتبرها نتيجة للتزويد الناقص أو غير الكافي للمعلومات من جانب الميديا، واستخدم مفهوم القوالب المجمدة في التفكير أو الصور النمطية لتفسير ما تقوم به الميديا وتقدمه من تمثيلات للعالم تكون مضللة ومتلاعباً بها. وقد رفض الرأي القائل إن الميديا تحرف على نحو متعمد ما يحدث وتشوهه وقال إن الصور النمطية هي أمر ضروري لجعل البيئة التي فيها وكذلك علاقاتنا الاجتماعية ذات معنى. هكذا تكون الصور النمطية ضرورية في رأيه لمعالجة الكمّ الكبير من المعلومات المتدفقة حولنا في المجتمع المعاصر (الحديث).

الأبعاد السيكولوجية

الحروب وآثارها النفسية على الأطفال

كتب د. يحيى فايز الحداد[1] أنه في عام 1980 أدخلت جمعية الطب النفسي الأمريكية (APA) عبارة (PTSD) - Post - Traumatic Stress Disorder أي: اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة. إن عبارة «اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة» لم تكن مستخدمة قبل عام 1980، إذ كان العلماء يستعملون قبل هذا التاريخ بعض العبارات الخاصة مثل «صدمة العنف أو المعارك أو الحروب» Combat Neurosis.

وبعد سبع سنوات عادت جمعية الطب النفسي الأمريكية وأدخلت بعض التعديلات على مفهوم «اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة» (APA, 1987, 1994)، منها تعديلان مهمان تجدر الإشارة إليهما: يتناول **الأول**، التركيز على عملية التجنب Avoidance، الذي يعتبر مؤشراً أساسياً للدلالة على اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة، وتتمثل هذه العملية في تجنب الأشياء والأفكار والمشاعر المرتبطة بالحدث وتجنب الوضعيات التي يمكن أن توقظ ذكريات الحدث.

ويتناول **الثاني**، اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة عند الأطفال،

(1) يحيى فايز الحداد، عالم الفكر، تشرين الأول ـ كانون الأول 2007.

ويتمثل في استعادة الطفل للحدث المؤلم عن طريق اللعب المتكرر المرتبط بالصدمة، بالإضافة إلى انخفاض الرغبة في بعض الأنشطة والمهارات بما في ذلك الكلام (يعقوب، 1999). ويعتبر أكثر هذه الحالات أثراً هو ذلك النوع من الصدمات التي تهدد الحياة، أو حدوث الإصابات الجسدية والمفاجآت الخارقة للعادة، فتجعل الإنسان في مواجهة الخوف من الموت أو الإبادة أو الإيذاء بشتى أشكاله.

وفي ضوء تعريف «اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة» Trauma يبرز عاملان مهمان: **العامل الأول** هو التمييز بين حادثة الصدمة والحادثة الضاغطة. فحادثة الصدمة ـ بحكم كثافتها وطبيعتها ـ تخلق الحزن في نفوس معظم الأطفال الذين يتعرضون لها بغض النظر عن عوامل الضعف لدى الأطفال أو موارد التكيف المتوافرة لديهم، حيث يشكل اضطراب ما بعد الصدمة عاملاً مهماً في حدوث اضطرابات نفسية معقدة عند الأطفال قد تستمر حتى سن الرشد (Terr, 1991).

والعامل الثاني يتمثل في النظر إلى رد فعل أو استجابة الأطفال لتجربة الصدمة على أنه رد فعل عام يشملهم جميعاً. ورغم تباين الشكل الذي تظهر عليه عوارض رد الفعل بحسب سن الطفل وطبيعة الصدمة، فإن الملامح أو المظاهر العامة لرد فعل ما بعد الصدمة تتشابه أو تكون هي ذاتها عند جميع الأطفال (Terr, 1991).

ويؤكد علماء النفس أن هذه الصدمات قد تصاحبها حالات من الفوبيا المزمنة من الأحداث أو الأشخاص أو الأشياء التي رافقت وقوع الحدث، مثل: الجنود، صفارات الإنذار، الأصوات المرتفعة،

الطائرات، وفي بعض الأحيان يعبر الطفل عن هذه الحالات بالبكاء أو العنف أو الغضب أو الصراخ أو الانزواء في حالات الاكتئاب الشديد. إلى جانب الأعراض المرضية مثل: الصداع، المغص، صعوبة في التنفس، تقيؤ، تبول لا إرادي، انعدام الشهية للطعام، قلة النوم، الكوابيس، آلام وهمية وفي حال مشاهدة لأشخاص يتألمون أو يتعرضون للتعذيب، وفي حالة مشاهدة الطفل لحالات وفاة مروعة لأشخاص مقربين منه أو جثث مشوهة، أو حالة عجز لدى مصادر القوة عند الطفل «الأب والأم على سبيل المثال»، يصاب عندها الطفل بصدمة عصبية قد تؤثر على قدراته العقلية (يعقوب، 1999).

لقد فرضت الآثار المروعة للحروب على الأفراد والمجتمعات الاهتمام ببحث المشكلات الناجمة عن الخبرات الصادمة التي يتعرض لها الأطفال والمراهقون بدءاً من برنامج بحوث الأمم المتحدة في عام 1948 برئاسة «جون بولبي» عن تأثير صدمات الحرب العالمية الثانية على الأطفال اليتامى الذين فقدوا والديهم في الحرب، إلى توالي الدراسات التي تناولت تأثير حروب ونزاعات أخرى في مناطق عديدة من العالم.

خبرات الحرب باعتبارها خبرات صادمة

وتظهر المراجعة الواسعة للأدبيات المتوافرة حول تجارب الأطفال في أثناء الحرب العالمية الثانية والحروب والنزاعات الحديثة تنوع تلك الخبرات. (Arroyo & Eth, 1985)، ولم تكن وحدة التشخيص التي يطلق عليها حالياً مصطلح «اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة» PTSD معروفة

قبل عقود، غير أن الدراسات التي سبقت تطوير وحدة التشخيص هذه، تمكنت من توثيق حصول عوارض نفسية شبيهة كثيراً بعوارض «اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة» لدى الأطفال الذين تعرضوا لخبرات معينة أثناء الحرب.

وفي عرض للدراسات والكتابات المتوافرة عن طبيعة صدمات الحرب في الأطفال وتاثيراتها القصيرة المدى والبعيدة المدى عليهم، تقرر إسبانوفيك (Ispanovik, 1993) أنه تتوافر دلائل قوية على أن التعرض لصدمات الحرب يفجر اضطراب الضغوط التالية للصدمة عند الأطفال، في حين أن الفقدان تتبعه ردود فعل الأسى والحزن، بينما يتسبب القلق على الآخرين في نشأة أعراض قلق الاتصال؛ ولهذا فإن مواقف الحرب تنطوي على تأثير تراكمي بسبب ما يميز الحروب خاصة من صدمات متعددة. ولقد أدى تطور البحث في تأثير الحروب على الأطفال إلى نقل بؤرة الاهتمام في هذا الشأن من مجال علم النفس المرضي إلى التأثيرات بعيدة المدى على النمو النفسي والاجتماعي والمعرفي للأطفال المصدومين. وتتباين المشكلات والاضطرابات وأعراضها عند الأطفال الذين شاهدوا الوالدين أو أحدهما أو أعضاء في الأسرة وهم يقتلون أو يعذبون، كما أن هذه المشكلات والاضطرابات وما تأخذه من مظاهر وأعراض تمتد إلى الجوانب الإدراكية والمعرفية والخيالية والانفعالية والسلوكية والاجتماعية من حياة الطفل (Malnquist, 1986).

والواقع أن تأثير التجارب القاسية والأحداث الصدمية على الأطفال

قد يفوق تأثيرها على الكبار، ويرجع ذلك إلى نقص نمو مهارات مواجهة الضغوط وآليات الدفاع بوصفها أساليب للتوافق مع المواقف الضاغطة ونتائجها، وكذلك إلى طبيعة الطفولة ذاتها، فالطفولة «فترة حساسة» أو مرحلة «حرجة» بقدر ما هي فترة من التغيرات والتحولات الجذرية التي تنطوي على صعوبات ومشكلات تجعل الأطفال أكثر استهدافاً لاضطراب التوازن، ولنقص التوافق مع الذات والمجتمع؛ ولهذا يتوقع أن تتفاعل الضغوط الناجمة عن الأحداث الصدامية مع صعوبات أو مشكلات النمو عند الأطفال، الأمر الذي يجعلهم أكثر استعداداً للتأثر بتلك الأحداث، وذلك ما يعبر عنه إريكسون (Erikson, 1959) بـ«الأزمة المحتملة» Potential Crises عند الأطفال.

ويرى بعض الباحثين أن القصف المدفعي والصاروخي والإجلاء عن المكان وتقطع أوصال العائلة هي أحداث ضاغطة غالباً ما تؤدي إلى ظهور استجابات اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة عند الأطفال (Baider & Rosenfeld, 1974).

هذا وأثبتت الدراسات وجود علاقة بين انفصال الأطفال القسري عن آبائهم وأمهاتهم واضطراب صحتهم العقلية في أثناء الحرب العالمية الثانية. وتظهر الدراسات الحديثة أن التهجير من السكن ومكان الإقامة، والهجرة القسرية، وتحوّل الأشخاص إلى لاجئين أمور ذات صلة باستجابات واضطرابات ضغوط الصدمة لدى الأطفال والمراهقين (Boothby, 1986). هذا وقد تمت الدلالة على أن موت أحد الوالدين أثناء القتال بطريقة عنيفة يؤدي إلى استجابات ضغط شديدة لدى أطفالهم

(Kaffamn & Elizur, 1984)، وبالإضافة إلى ذلك، تم توثيق حالات عديدة لأطفال أو مراهقين كانوا ضحايا لعنف مؤذٍ أو مرتكبين له ظهرت عليهم استجابات مماثلة لاضطراب ضغوط ما بعد الصدمة (Ayalon, 1983)، كما وصف عدد من الباحثين عوارض الاكتئاب لدى أطفال شاهدوا أفعال عنف مثل تعذيب آبائهم أو أقاربهم أو اعتقالهم بصورة وحشية، أو إعدامهم (Schrimer, 1986).

وعلى رغم أنه لا توجد دراسات توثق آثار الجروح والإصابات في أثناء الحرب على الأطفال، فقد نشرت مقالات عديدة حول تأخر النمو لدى الأطفال الذين اضطروا للتكيف مع فقدان أحد أطرافهم، أو تعرضوا لعمليات بتر جراحية (Earle, 1979).

وأخيراً يؤكد بعض الباحثين أهمية التنبه إلى أثر الفقر المدقع والحرمان الشديد على الأطفال كظروف تحمل في طياتها عوارض الصدمة القابلة للظهور والتجسد. وتدل الدراسات المشار إليها سابقاً على وجود تشكيلة من صدمات الحرب تمثل تجارب مشتركة للأطفال في ظل الحروب. وبما أن لكل حرب مظاهرها الخاصة، فقد تتنوع تجارب الصدمة التي يمر بها الأطفال من بلد إلى آخر، ويساعد رسم ملامح نماذج الصدمة في دولة ما على التعرف إلى أنواع صدمات الحرب الخاصة بتلك الدولة.

العنف والتلفاز والذكاء

إذا كان الشك لا زال مخيماً على آثار التلفزيون على ذكاء الأطفال، فإن بحوزتنا الآن فرضيات قوية تتعلق بالعنف المرتبط بمشاهدة المشاهد المصورة، إذا لم يكن الرائي قادراً على تطوير الذكاء - إن الرائي لا يجعل الطفل أكثر غباء كما أن الاستمناء لا يسبب الطرش - ولكنه لسوء الحظ يوقف اندفاعات العنف النائمة في أعماق كل مشاهد، وهذا لسببين على الأقل[1].

أولاً: عدم القدرة على تفريغ الشحنة العاطفية المتراكمة بالتسجيل العفوي لمشاهد لا نتحكم بها، والذي يسبب تأجيجاً لا ينكر للعنف الذي سيظهر بطريقة فظة عاجلاً أم أجلاً.

ثانياً: لا بدَّ أن نكون سيئي النية لندعي أن العنف لا يُبجل في البرامج والأفلام والمسلسلات... الخ، التي تُعرض على المشاهدين، والبرامج المخصصة للأطفال لا تشذ عن هذه القاعدة، وتحوي كماً من المشاهد العنيفة الذي لا يمكن مقارنته بالعنف الموجود بوسائل الإعلام

(1) رينيه بلند وميكائيل بول، مخاطر الشاشة، مكتبة العبيكان، الرياض 2008، ص109 - 111.

الأخرى والألعاب والنشاطات، إننا نضرب ونقتل وندمر ونفجر ونبيد ونعذب بكثرة لا نشاهدها في الحياة اليومية لأطفالنا (رغم أن بعض أشكال العنف المستور موجودة). عندما يصل صدى صوت التلفاز لأسماع الكبير الذي أوكل للرائي مهمة شغل صغيره، فإنه لا يسمع غالباً سوى صرخات الرعب، وعويل الحقد، وأصوات انفجار قذائف الأسلحة المتطورة، وصفير الصواريخ، وطقطقة الرشاشات، أما الأطفال البؤساء فتقع نظراتهم الحائرة القلقة على مدن مخربة، وسجناء تُساء معاملتهم، ووحوش قبيحة في خدمة قوى الشر.

ويردون علينا، بأن هذه الأمور ليست سوى محض خيال لا يمكن تحقيقه يستطيع الأطفال حمله على هذا المحمل، بالتأكيد ولكن النماذج القصصية والمواقف النموذجية توحي بإصرار أن اللجوء للقوة يحل كل المشكلات، وأن الحل هو دائماً «حل جذري»، إذا سمحتم لنا باستخدام التعبير، إن أسوأ ما في الأمر لا يكمن في التمييز بين الحقيقة والخيال. فلا يوجد تلفاز بدون عنف؛ لأن طبيعة العنف تشاهد عن بعد.

إفريقيا؟ صراع قبلي، ومرتزقة يعيشون على أمجاد الحقبة الاستعمارية، والمجاعات، أمريكا اللاتينية؟ تجار مخدرات وحرب عصابات، نيويورك؟ لصوص وأسواق تجارية تنفجر، ولا يهمنا عن بركان سوى معرفة عدد الضحايا الذين سقطوا عند اندفاعه الأخير، وما زالت صورة الطفلة الكولومبية التي تحتضر في الوحل النازل من مرتفعات نيڤادو دل رويز حاضرة في ذاكرتنا، كل هذا موجود بالطبع،

ولكن رفع قيمة العنف وقيمة المعاناة والضعف البشري، وتشجيع الحقد الأعمى لا بدّ له أن يغير في النهاية نظرتنا للعالم من حولنا، إن التعامل مع الآخر المبني على الخوف لا يمكن له أن يُولد السلام والتعاون، ومن نافلة القول أن نؤكد أن الطفل هو الأكثر عرضة للتأثر بما يرى، وخاصة إذا كان يتلقى هذه الرسائل وهو في حالة تشبه التنويم المغناطيسي المذكورة سابقاً.

هل هي آثار قابلة للقياس؟

العلماء الذين لا يكتفون بالانطباعات العامة وضعوا بروتوكولات تجريبية مختلفة ليظهروا بالأرقام العلاقة بين التلفزيون وظاهرة العنف عند الأطفال.

وقد يكون من المفيد بهذه المناسبة أن نقوم بجولة منهجية صغيرة لنفهم قيمة وجود التجارب «المخبرية».

يجب أن نُذكر أولاً كما يفعل كل الباحثين الأمينين بأن ظروف التجارب مهما حاولت أن تعكس الحقيقة فإنها تبقى غير مطابقة للواقع، ولذلك وجب علينا أن نكون حذرين جداً عند استخلاص النتائج، وكذلك علينا ألا يغيب عن بالنا أن «العلوم الإنسانية» لا تشابه تماماً «العلوم الدقيقة». فعدد العوامل التي تتدخل في السلوك الإنساني تبقى غير محددة وخارج حدود السيطرة مهما كانت الاحتياطات المتخذة والإجراء المتبع. وأخيراً فإن من أشد الصعوبات تفريق المسؤولية المباشرة (لأن الأطفال الذين يشاهدون الرائي أصبحوا عُنُفاً) عن العلاقة

الممكنة (الأطفال العُنُفُ يشاهدون الرائي أكثر من غيرهم)، وعن العاقبة (لأن الأطفال عُنُفٌ فإنهم يشاهدون الرائي). ومن الأمثلة البسيطة جداً في الحذر المطلوب أمام استنتاجات الباحثين الدُعابة الآتية: «هل تعرفون السبب الأول للطلاق؟ الزواج!». يجب أن يكون لدينا نفس الشك فيما يتعلق بالإحصائيات التي يمكننا من خلالها أن نستنتج الشيء وعكسه، إن لم نكن مزودين بمعارف أساسية، بإمكاننا توضيح هذا الخطر من خلال الإحصائية الآتية: «دراسة (هـ) التي تقوم بها المؤسسة (ي) (مثلاً في مدينة أمريكية مشهورة) الاختصاصية بالأبحاث حول الإدمان أكدت أن 96٪ من حالات الوفاة التي سببتها جرعة زائدة من الهيرويين، كانت عند أشخاص رضعوا من أمهاتهم مرة واحدة على الأقل خلال السنة الأولى من حياتهم». هذه الإحصائية الصحيحة بحدِّ ذاتها لا تسمح باستنتاج نتائج محتملة إلا إذا قارنا المعطيات بمعطيات مجموعة شاهدة، فإذا بقيت النسبة نفسها عند الناس الذين لا يتعاطون الهيرويين، فلا يمكننا بطبيعة الحال أن نستنتج أي شيء بخصوص دور حليب الأم في الوفاة من جرعة الهيرويين الزائدة.

إن هذا التوضيح لا بد منه قبل أن نطلع على بعض الأبحاث التي أُجريت حول موضوع العنف المتعلق بمشاهدة الرائي من قبل الأطفال، وذلك إذا أردنا أن نتجنب الوقوع في فخ العلم الكاذب[1].

(1) المرجع السابق، ص112 ـ 113.

الأبحاث والنتائج حول ظاهرة العنف

إن التساؤل المطروح حول تأثير المشاهد العنيفة على مشاهدي التلفاز ليس حديثاً: فمنذ 1916م، صنفت دراسة فرنسية السينما «كمدرسة للانحطاط والجريمة». إذا كانت هذه العبارة المختصرة تجعلنا نتبسم اليوم، خاصة إذا فكرنا بالمشاهد البريئة لأفلام تلك الحقبة، ولكنها تشعرنا بضرورة إعادة النظر والتفكير الرصين بالتغير الذي طرأ على مجتمعاتنا.

كانت أُولى الدراسات المجراة على ظاهرة العنف أمريكية، ثم أُجريت دراسات في بريطانيا، وأخيراً في دول أوروبا الأخرى، ومعظمها تبقى متأرجحة في استنتاجاتها، رافضةً أن تُلقي باللائمة كلها على التلفاز في الزيادة المتوقعة عند المشاهدين صغار السن.

ولذلك فإننا سوف نصل إلى استنتاجاتنا الخاصة من خلال دراسة العناصر المهمة لهذا الملف[1].

أولاً: هذا الرقم المجرد الذي تذكره مجلة تربوية أمريكية في عام 1985م: «(...) يشاهد الطفل الأمريكي العادي 18... جريمة قتل قبل أن ينهي دراسته الثانوية». والسؤال الذي يظهر على السطح مباشرة هو:

لماذا؟ لماذا هذه «670 جريمة قتل، 15 حادثة اغتصاب، 848

(1) المرجع السابق، ص114 ـ 119.

شجاراً، 419 تبادل إطلاق نار أو انفجاراً، 14 عملية خطف، 11 حادثة سرقة تحت تهديد السلاح، 8 حوادث انتحار، 32 عملية خطف رهائن، 27 مشهد تعذيب، 18 مشهد تعاطي مخدرات، 9 حوادث رمي نفس من خلال نافذة، 13 محاولة خنق، و11 مشهداً لمعارك حربية (. . .) المشاهد التي أحصتها المجلة الأسبوعية لوبوان Le Point عن محطات التلفاز الفرنسية خلال أسبوع؟

قبل أن ندعي شرح أو تفسير أي شيء لدى الطفل، لا يمكننا تجاهل هذه المشكلة الفلسفية: لماذا يجد الشر والمعاناة والدناءة هذا الصدى عند الطفل الذي ندعوه اعتباطاً بالحكيم؟

إنه ليس من حق مؤلفي هذا الكتاب أن يعطوا جواباً لكل سؤال يخطر ببال أحدنا، ولكن وضع الطفل في ظرف عام حيث المنافسة، والصراع العنيف بهدف السيطرة، والاصطفاء الشديد، والعنف على كل المستويات (السياسية والاقتصادية)، والشدة النفسية، والخوف من الفشل (انتحار طلاب المدارس في اليابان)، وتبجيل النجاح و«العراك» «(إنه رجل مكافح، أو مندفع بجموح») يتم تقديرها كمُثُل عليا. ومن قبل من؟ إن لم نكن نحن الكبار؟ لا شك في أنه نوع من السذاجة أن نخُلي أنفسنا من المسؤولية، ونحاكم الأمر كقضاة ولنضيف المزيد من التشاؤم نريد أن نحدد أن الطفل ليس بريئاً تماماً، وأن الشر يجذبه أحياناً أكثر من الخير. . . تناقض تعرض له المدرسون والآباء في يوم من الأيام، ولنعد إلى صلب الموضوع يجب علينا أن نركز على الأبحاث المجراة في المخابر، دون أن نهمل الجانب المصطنع للحالات المذكورة.

في عام 1961م درس باندورا (الولايات المتحدة) وغيره سلوك أطفال مع لعبة تدعى «دمية بوبو» Bobo Doll بعد مشاهدتهم للعنف على الرائي أو غيره، وكانت استنتاجاتهم واضحة تماماً: إن العدائية لدى الأطفال الذين شاهدوا المشاهد العنيفة كانت أكبر منها لدى الأطفال الذين لم يتعرضوا لهذه التجربة، وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام: كان العنف الذي أبداه الأطفال تجاه اللعبة أكثر شدة، كلما كانت همجية المعتدي في البرنامج المشاهد موضع تقدير.

لجأ بيركوفيتش لنفس الأسلوب في نهاية السبعينيات لدراسة العنف عند الأطفال الآخرين في الولايات المتحدة وبلجيكا، وهناك كذلك كانت النتائج غير قابلة للنقاش: كانت العدائية الجسدية والقولية أكبر عند الأطفال الذين شاهدوا أفلاماً عنيفة، مقارنة بتلك المشاهدة لدى الأطفال الذين تابعوا مشاهد عادية محايدة، وبحسب علمنا فإن بيركوفيتش كان من أوائل الذين أظهروا أن العناية التربوية تؤثر على درجة العنف عند الأطفال الذين يتعرضون لنفس المشاهد، ولكن لا بد لنا من أن نخفف من حدّة هذه الملاحظات فكما يقول هوزمان: «لا شك أن تعريض الأطفال لرؤية العنف في فيلم أو برنامج تلفازي في أجواء المخبر الخاصة يزيد من احتمال تصرفهم بعدائية بعد هذه التجربة».

إن المرحلة التالية هي دراسة تأثير المشاهد العنيفة على المدى البعيد، خارج النطاق المصطنع للمخبر، وفي الحياة اليومية للأطفال،

إن أبحاث بلسون المجراة على 1565 صبياً في مدينة لندن تتراوح أعمارهم بين 12 ـ 17 سنة (في عام 1978) تبقى مثلاً يحتذى، وتظهر بوضوح وجلاء حقيقة زيادة السلوك العدائي عند الصبية الأكثر تعرضاً من ناحية الكم للمشاهد العنيفة، إضافة لذلك يثير بلسون احتمال وجود علاقة بين درجة عنف الشباب، وطبيعة البرنامج المعروض، ويبدو أن هذه العلاقة تزداد قوة، كلما كان العنف «ملموساً» وغير مبرر ومغلفاً بالمكر والخديعة، بينما يكون العنف في الصور المتحركة وأفلام الخيال العلمي أقل ضرراً.

وبحسب رأي بلسون فإن آلية «رفع حرج» هي التي تفسر الانتقال إلى الفعل، فالحواجز المعتادة التربوية والاجتماعية تنهار تحت تأثير السيل المستمر من المشاهد العنيفة التي يرفع التلفاز من قيمتها.

وبإمكاننا أن نعدد الأمثلة التي تؤدي إلى استنتاجات مشابهة، ولكن الأهم هو اكتشاف ظروف نشوء هذا العنف، وهنا نجد الدور الرئيس الذي تلعبه الصحبة العائلية والتربوية التي يعبر عنها بجلاء كل من إيرونز وهيوزمان.

«كلما قل اهتمام الأهل بالطفل وقل حنانهم، قل اقتداؤه مَثَلَ أحد الأبوين، وزاد عنفه في المدرسة، إضافة إلى أن العقوبات ـ وخاصة الجسدية ـ التي يفرضها الوالدان تصبح مثلاً يحتذى في السلوك العدائي لدى الأطفال».

هذه النظرة تؤكد تعقيد أسباب ظاهرة العنف، ودون أن ندعي

الحسم في المسؤولية النسبية للتلفاز، فبإمكاننا أن نؤكد أن التلفاز ليس سوى عنصر في لوحة اجتماعية تلعب فيها عوامل مثل الحب والتربية (التي يصعب قياسها «علمياً») دوراً حاسماً.

الآثار «غير العنيفة» للعنف التلفازي

ركز الباحثون كثيراً في أبحاثهم على العنف المولد للعنف، أما الأبحاث المجراة على النتائج الأخرى لمشاهدة الصور العنيفة فهي قليلة.

ليليان لورسا الاختصاصية بعلم الاجتماع، والعاملة كمديرة أبحاث في مركز الأبحاث العلمية الوطني الفرنسي CNRS، هي دون شك الأكثر دراسة (فيما يخص فرنسا) للتجربة التلفازية عند أطفال مدارس الحضانة. وقد اهتمت خاصة بالقلق الذي تبعثه مشاهدة رسوم متحركة عنيفة مثل غولدوراك، بيومان أو فرسان زودياك الأكثر رواجاً في ذلك الوقت. ومن خلال حوار متتابع مع 421 طفلاً من مستويات اجتماعية مختلفة، أظهرت وجود صدمات نفسية حقيقية عند الأطفال الصغار، وخلطاً خطيراً بين الواقع والخيال[1].

وبرأي ليليان لورسا، فإن الآباء والبالغين عموماً يقللون من أهمية وخطورة عرض المشاهد العنيفة على التلفاز، وتأثيرها المديد على نفسية الطفل، وقد لاحظت أن الضرر يزداد كلما نقص الاهتمام والحنان

---

(1) المرجع السابق، ص120.

المقدم من جانب العائلة، وأنه يختلف باختلاف الوسط الاقتصادي الاجتماعي الذي ينتمي إليه الطفل[1].

وبعد أن تركت جانباً الأبحاث المخبرية، أو العبث بالإحصائيات، قامت بجمع صور لشهادات أطفال تصدم ببساطتها، وبعيدة جداً عمَّا كان يتخيله المدرسون والآباء، إنها تتناول ظاهرة الانبهار التي تعرضنا لها سابقاً، والأفعال نصف الواعية اللاشعورية التي لا سيطرة للوعي عليها. ومن هنا يأتي الخطر الذي يمكن حصره بوسيلة الإعلام التلفازية. فعندما يقرأ الأهل القصص للأطفال، فإن الصلة بالواقع قائمة، ولا يحصل الأثر المنوم مغناطيسياً؛ لأن علاقة الحب محترمة. أما عندما يقرأ الطفل بنفسه فعليه أن يبذل جهد تركيز يمنع الإيحاء، ويبقيه في حالة يقظة واقية، وهذا بالضبط الأثر الذي يجهله الأشخاص المهتمون (أو غير المهتمين) بالأطفال الصغار[2].

إن ما يميز معظم الأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع هو المقاربة الشخصية، أو صغر المجموعات المدروسة، وبهذه المناسبة فمن المهم ذكر دراسة براندون سنترول التي أجريت في جامعة واشنطن، والتي لا تقوم على دراسة عينة مختارة وإنما مجموع سكان البلدان الثلاثة: كندا والولايات المتحدة بين العامين 1950 و1970م، وجنوب أفريقيا بين العامين 1975 و1987م، إلى ماذا تشير هذه التواريخ؟ إلى المدة الفاصلة

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق، ص121.

بين دخول التلفاز وبين بداية حساب عدد جرائم القتل في هذه البلاد المختلفة. بالنسبة للبلدين الموجودين في أميركا الشمالية، يمكننا الكلام عن زيادة قدرها 130٪. إن تطابق المنحنيات للدارسين يظهر أن الفاصل الزمني بين الظاهرتين واحد، مما يقترح وجود علاقة بين وسيلة الإعلام هذه، وازدياد ظاهرة العنف[1].

خلل في نمو الخيال

هناك شأن أخطر ندّدت به عالمة النفس «ليليان لورسا» L. Lurcat الباحثة السابقة في المركز الوطني للبحوث العلمية CNRS (فرنسا) وهو[2]: عندما يقتحم التلفزيون أوقات الفراغ وأحلام اليقظة فإنه يُحدث خللاً في نمو الخيال عند الطفل. إن الطفل الذي يلعب يستعين بتصوراته الذهنية الخاصة به. وعندما تُربط ألعابه ببرامج التلفزيون فإن الطفل لا يعود مبدع أفكاره بل يصبح مجسداً لأفكار الآخرين... مما يعني أن منحى التقليد يكون أقوى من منحى التفكير والإبداع.

ومن جهة التكوين النفسي للطفل، نرى أن المشاهدة الحادة التي تهدد أطفالاً في معرض الفيلم أو تعرضهم للأذى والألم والجوع فإنها ومن دون شك تهدد شخصية الطفل المشاهد لأن مشاعر الخوف ستتوالد في داخله ويحس شخصياً بأنه ملاحق ومعرض لها. وقس على ذلك الحالات التي تصور مشاهد مشوهة عن الأسرة وعن العلاقات

(1) المرجع السابق.
(2) جان وديع شكور، العنف والجريمة، الدار العربية للعلوم، بيروت 1997، ص 65.

الأسرية غير السوية المتمثلة بالأم الغاوية التي لا تهتم بأفراد عائلتها أو بالأب العاجز عن شراء الدواء أو عن حماية أطفاله من اعتداء خارجي. . . فإن مثل هذه الأسرة ستؤثر سلباً في الانبناء النفسي للأطفال[1].

وعن الآثار النفسية والاجتماعية للتلفزيون كتب عبد الرحمن عيسوي أنه من عوامل توحيد الأفكار والمشاعر بين الناس، ويوحد بين عاداتهم وتقاليدهم وأنماط سلوكهم وقيمهم لأن الآلاف منهم يشاهدون نفس المؤثرات. فهو يساعد على تحقيق وحدة الفكر والمعايير والثقافة والأذواق الجمالية. وهو بذلك أداة من أدوات التثقيف الجماهيري. فهو يثير في الإنسان الخيال أو الوهم كما يثير فيه روح التقمص أو التوحد مع من يرى من شخصيات يعجب بها أو مع آراء وأفعال، ويشجع فيه أحلام اليقظة. . .

وكتب في هذا المجال أيضاً الدكتور حسن شحاتة سعفان أن التلفزيون يشجع السلبية لأن المشاهدة لا تتطلب أي جهد كذلك تقدم الأفكار جاهزة وقد يتعود المشاهد على ذلك فيتكاسل حتى عن مجرد التفكير أو النقد لما يرى ويسمع. . . مع الإشارة هنا إلى سهولة استغلال التلفزيون لأغراض رخيصة أو على سوء توظيف لبرامجه بحيث تترك من دون رقابة ومن غير هادفية. لا ننسى هنا وجود أجهزة الفيديو ووجود خدمات الكابل تلفزيون التي تسمح لعشرات الأقنية ببث مئات

(1) المرجع السابق.

البرامج المدفوعة الأجر سلفاً حسب الذوق والاختيار مع الإشارة هنا إلى أن غرف نوم العديد من الناشئة تحوي أجهزة للتلفزيون مما يعني أن حجم التعرض للتأثيرات كبير ومن المحتمل جداً أن يزداد إذا أخذنا في الاعتبار مقدار المعرفة وكمية المعلومات التي ينقلها للمشاهدين والتي تفوق كثيراً المعلومات التي يقدمها الكتاب للتلميذ في صفه نظراً إلى الشكل والمضمون اللذين تقدمهما شاشة التلفزيون. فمن أجل المزيد من عمليات التهديف والتخطيط لأكبر مردود تربوي يُحكى اليوم عن التلفزيون التعليمي أو التعليم المتلفز. ومن أجل أن تكون العروض، عروض التلفزيون، ناجحة، لا بدَّ من تحقيق بعض المبادئ. من هذه المبادئ نذكر[1]:

* يقوم العرض على أساس تكرار نفس المبادئ أو القيم وعن طريق تكرار عرضها يتم تعلمها.

* يؤثر التلفزيون أكثر ما يؤثر عندما ينفرد بعرض نوع معين من الحقائق لم يسبق للمشاهد أن خبرها. ويعتمد الفهم التلفزيوني على النضج العقلي والانفعالي والاجتماعي للطفل.

* عرض الحقائق في صورة مشاهد تمثيلية.

* أن يتلاقى المعروض مع اهتمامات المشاهدين.

* الإيمان بأن للتلفزيون آثاراً تتراكم وتؤثر في شخصية الطفل في المستقبل.

(1) المرجع السابق، ص67.

وفي هذا المجال يقول وايتهايد: إن أفضل تربية هي في الحصول على المعلومات بأسهل طريقة وأبسط وسيلة، لأن البساطة تسمح بالحصول على أفضل مردود بين التعليم والاكتساب، وعلى الرغم من تطور نظريات التربية وطرق التعليم فإن مبدأ المعلومات المبسطة التي قيل عنها إنها أسهل للحفظ يبدو أنه غير قابل للنقاش لا سيما أن النظريات السيكولوجية التي هي أساس التعليم المبرمج تقول بمبدأ تحويل الأفكار المعقدة إلى أخرى مبسطة. فلا عجب إذن إن اعتبرنا التلفزيون وسيلة هامة وفاعلة في تشكيل سلوك الطفل وفي تشكيل معاييره الاجتماعية وقيمه التي على ضوئها يسلك.

وبمقارنة بين ما يقدمه التلفزيون وبين ما تقدمه المدرسة اعتبر مورداك البريطاني أن برامج التلفزيون والفيديو تدعو إلى استهلاك الوقت واللعب بينما المدارس تدعو إلى العلم والعمل والإنتاج مدللاً بقوله على أن المدارس تخاطب العقل، وبرامج التلفزيون والفيديو تخاطب المشاعر وتلهب العواطف. ومن ذلك نستنتج أن بمقدور الشاشة أن تكون وسيلة تأثير ذات شأن كبير. إضافة إلى ذلك، فإن الشاشة دفعت بالأطفال إلى العزوف عن المطالعة والقراءة الحرة لأن الطفل يسلك دائماً الطريق الأسهل. فالمشهد (صورة وصوتاً وحركة) يقتحم بيتك رغماً عنك كالزائر الوقح الذي لا يتقيد بآداب الزيارات والذي يحتل أفضل مكان في المنزل ويفرض وجوده من دون استئذان بينما المشاهدون في حالة من الاسترخاء والتلقي. وهنا لب المشكلة بحيث يأتي التأثير سهلاً فيسلك إلى العقول والنفوس ويسري في حياة أطفالنا كما يسري النعاس في الجسم وبخاصة

مع تكرار الفكرة مرات ومرات وبأشكال مختلفة إلى أن تتسمم الأفكار وتعتل النفوس. ولا بدّ من التذكير هنا بالمثل الصيني القائل «صورة واحدة تعادل عشرة آلاف كلمة». وندلل بذلك على أهمية تأثير الصورة في نفوس المشاهدين وفي عقولهم[1].

وبالمقابل، ولكي نعطي الشاشة الصغيرة حقها، لا بدّ من الإشارة إلى أهميتها وفائدتها بكونها مصدر إيحاء سلوكي إذا أُحسن توظيفها. حول هذا المعنى أذكر حالة فتاة في السادسة عشرة من عمرها فقدت النور في إحدى عينيها نتيجة إصابتها أثناء الحرب اللبنانية وكيف تحولت من كتلة متأججة بالحياة والمرح والنشاط إلى كتلة استوطن فيها البؤس والحزن واليأس وكيف أن الأم حارت مع الأهل والأقارب في إيجاد السبيل لإخراجها من هذه الدوامة التي أخذت تنغص حياة الأسرة وتوتر سلوك أفرادها. ولكن، وبعد طول انتظار استطاعت الشابة أن تجتاز محنتها وتخرج من عزلتها ودونيتها التي فرضتها عليها الحرب، وسبب ذلك، كما تروي الأم، مشاهدة ابنتها لقصة شاب معاق جسدياً ورؤيتها لطريقة تأقلمه مع واقعه الذي يحرّك المشاعر من الصميم وكيف أنه بعزمه وإرادته استطاع تخطي الصعاب ومواجهة الحياة. وهكذا أخذت ابنتي، تقول الأم، تعود إلى واقعها لتتكيف معه ومن ثم بدأت بتوظيف طاقاتها في سبيل متابعة حياتها الاجتماعية. والفضل يعود، برأي الأم، إلى مشاهدة هذا الفيلم.

(1) المرجع السابق، ص68.

وحول أهمية التلفزيون يقول فيتزغ دودسون Fitzhugh Dodson من الخطأ أن ننفي أهمية الوظيفة التربوية للتلفزيون وبخاصة في مراحل النمو ما قبل المدرسة. وأشار إلى أن القاموس اللغوي عند الأطفال في الصف التمهيدي والأول هو أغنى عند الذين يشاهدون التلفزيون وهو نسبياً أفضل مما كان عليه قبل دخول التلفزيون إلى البيوت. وتحت عنوان «أستاذ تلفزيون» يشير الباحث إلى أن القاموس اللغوي للطلاب في الصفوف التحضيرية يتقدّم سنة عند الذين يشاهدون التلفزيون عن غيره ممن لا يشاهدون. وينهي دودسن كلامه: هذا لا يعني أننا ننصح الأطفال في سنواتهم ما قبل المدرسية بأن يكثفوا مشاهداتهم للبرامج التلفزيونية إنما ندعو الأهالي إلى إثارة نمو أطفالهم بأنشطة مختلفة في المنزل وفي خارجه (ركض، لعب، قفز، تسلق، تركيب، استماع إلى قصص نقرأها لهم. . .) والتلفزيون قد يحتل جانباً من هذه الاهتمامات ومن دون أن يكون له حصة الأسد[1].

من الواضح للباحثين في هذا المجال وجود تأثر للطفل بمشاهد العنف التلفزيونية ابتداء من عمر الثانية، كما أنه يعيد استرجاع هذه المشاهد لاشعورياً وبأساليب مختلفة قد تتطور في مراحل عمرية لاحقة إلى سلوكات أكثر عدائية في خلال حياته العلائقية مع عناصر البيئة حيث يعيش ويتفاعل.

ومن الدراسات في هذا المجال نذكر[2]:

---

(1) المرجع السابق، ص69.

(2) المرجع السابق، ص71 ـ 72.

ـ دراسة الباحث الأميركي رويل هويسمان R. Huesmann عام 1985، وهو أستاذ علم النفس في جامعة «ايلينوا»، وجاءت الدراسة واسعة النطاق إذ شملت ستة بلدان مختلفة: الولايات المتحدة الأمريكية، أستراليا، فنلندا، إسرائيل، هولندا وبولونيا. ونتيجة لاستماراته وللملاحظات الميدانية وللحوارات مع الآباء توصل إلى وجود علاقة سببية تقول: تزيد مشاهدة العنف التلفزيونية من معدل العدوانية الطفلية أيّاً كان البلد الذي ينتمي إليه الأطفال.

ـ دراسة الباحث البريطاني في جامعة كولومبيا «تانيس وليامز» T. Williams عام 1986 وقد شملت مجموعة من الأطفال من ثلاث مدن كندية متجاورة: واحدة قبل دخول التلفزيون إليها بوقت قصير، ثم بعد دخول التلفزيون إليها بسنتين، والأخرتان بعد دخول التلفزيون إليهما بعدة سنوات. وقد لاحظ المستوى الأدنى من العدوانية في المدينة التي لم يكن قد دخل إليها التلفزيون بعد، غير أن معدل عدوانيتها صار يتزايد عقب تمكنها من البث التلفزيوني.

ـ دراسة «براندون سنتروول» من جامعة واشنطن التي أشارت إلى أن جرائم القتل في كندا والولايات المتحدة ازدادت بنسبة 93٪ بين عام 1950، عام دخول التلفزيون إليهما، وعام 1970. ونلاحظ الظاهرة نفسها في جنوب أفريقيا حيث ازدادت جرائم القتل بنسبة 13٪ بين عامي 1975، عام دخول التلفزيون، وعام 1987.

فيروس الشاشة

نزعات العنف عند الشباب

يتحدث وبست عن التلفزيون كأحد منابع أو مصادر العنف في الشباب فيقول إن الأحداث الجانحين يستمدون معاييرهم المنحرفة في التعليم عن طريق اختيارها من بين قيم المجتمع ككل والمبالغة فيها ويجد الأحداث الجانحين نماذجهم في الأفلام التلفزيونية كما يجدونها في السينما وفي الصحافة وفي الكتب ولذلك فالبعض ينتقد الأداة التلفزيونية على تصوير الجريمة والعنف بصورة أكبر من حجمها في الحياة الطبيعية. ويفتقد ملء الأخبار للنشاط الإجرامي والعنف واستخدامه في المسرحيات والأفلام لأنه يفسد القيم التي يعتنقها الشباب ويشوه المعلومات عنها.

ولذلك ربما يميل بعض الشباب إلى تجربتها. حقيقة إن تقدير الأثر بعيد المدى بالتلفزيون على المجتمع فيما يختص بالعنف والجريمة أمر مستحيل وقد وجدت إحدى لجان بحوث التلفزيون في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1963 بأنه لا يوجد أدلة مباشرة عن زيادة عامة في العنف كنتيجة لمشاهدة الشباب للتلفزيون ولكن من ناحية أخرى قد

وجد أن الشباب العدواني وسيئي التوافق يعتبرون العنف على شاشة التلفزيون أمراً مثيراً للدهشة والإعجاب وأنهم أكثر احتمالاً أن يستجيبوا استجابة عدوانية للموقف المشابه بعد ذلك ولكن من الصعب اتخاذ إجراء في هذا الصدد لأنه يجوز فرض رقابة صارمة وحرمان جازم تأثر به الأغلبية من حماية أقلية صغيرة[1].

التلفزيون والجريمة:

يرى الدكتور حسن شحاته سعفان، أن بعض الباحثين يعتقدون أن بعض الأفلام تعمل على بث روح الجريمة حيث يصور المجرم بصورة بطولية بشكل يثير الإعجاب بشخصيته أو الأفلام العاطفية التي تثير الغرائز وتسخر من بعض العادات والتقاليد والمثل العربية الأصلية، وتؤدي إلى الاستهتار بهذه العادات وهناك من الأفلام ما يصور إمكانية أن يعيش الفرد عاطلاً من العمل أو عن طريق خداع الآخرين بأن النجاح يتم بالحظ والصدفة دون الاجتهاد والكفاح، وهذه الأفلام ترسم للمجرمين المناهج التي يتبعونها.

ورغم أن بعض البحوث دلت على اعتراف الأحداث الجانحين بالتأثير بما شاهدوه من أفلام على سلوكهم الإجرامي إلا أن هناك بالطبع آخرين شاهدوا هذه الأفلام ولم يرتكبوا أي سلوك إجرامي، نستطيع أن

(1) عبد الرحمن محمد العيسوي، سيكولوجية الإرهابي، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت 2005، ص146.

نقول في ضوء ذلك إن المشاهدة تؤدي إلى الانحراف إذا كانت تلقى استعداداً نفسياً لدى الفرد أو إذا كانت ظروفه البيئية المحيطة مما يشجع أو يبعث على مثل هذا السلوك[1].

دوره في الجريمة:

ويتحدث دافين ابراهمن في كتابه سيكولوجية الجريمة عن دور التلفزيون في الوقاية من الجريمة فيقول إن الآراء تختلف حول دور التلفزيون والسينما والكتب الهزلية في حدوث الجريمة لدى صغار السن ويذهب إلى القول بأننا في حاجة إلى مزيد من الدراسات لتحديد مدى تأثير هذه العوامل على شخصية الطفل السوي.

ويستطرد قائلاً أننا إذا كنا نريد أن نخلق الجو الطبيعي الصحي الذي يساعد على نمو عقلية الطفل بانفعالاته ومشاعره بطريقة منسجمة يجب أن تستخدم كل العوامل المؤدية إلى خفض الجريمة.

ومن بين المبادئ التي يمكن مراعاتها ألا يكون البطل في القصص المعروضة سوبرمان والأخرى أن يكون من رجال القانون ويجب الأخذ بمبدأ عدم نفع أو فائدة الجريمة. إن مشاهدة كثير من الأحداث الجانحين للتلفزيون لا يعطينا مبرراً كافياً للقول بأن التلفزيون هو سبب الجريمة لأن هناك كثيراً أيضاً يشاهدونه من غير الأحداث الجانحين والواقع أن الطفل الذي يشاهد التلفزيون بصورة مستمرة فيلتصق بطفولته

(1) المرجع السابق، ص147.

ويعكس اضطراباً انفعالياً ولكن هذا الاضطراب ليس نتيجة لعادة المشاهدة وإنما العادة في الواقع هي عرض من أعراض الاضطراب، إن المشاهدة ليست السبب وإنما هي نتيجة لوجود الاضطراب.

حقيقة هناك كثير من قصص الرعب ولكنه يتشكك في إمكان هذه القصص في إنتاج السلوك الإجرامي في الأشخاص الأسوياء حسن التكيف بل على العكس ربما تزود هؤلاء الأسوياء بمنفذ أو مخرج لتصريف مشاعرهم الحبيسة ويرى أن الأطفال الذين يصبحون ضد المجتمع أو مجرمين يوجد بداخلهم سمات بحيث إن أي مثير يؤثر فيهم ويجب أن تعترف أن هناك بعض الحالات التي تثير فيها المادة التلفزيونية السلوك الإجرامي من بين الأشخاص المضطربين عقلياً.

ويخلص إلى القول. . . وفي ضوء ما قلته أنني لا أريد أن يعتقد القارئ ولو للحظة واحدة أنني أعتقد من الصحي للأطفال أن يظلوا باستمرار مركزين أعينهم نحو جهاز التلفزيون أو أن يذهبوا إلى السينما ثلاث مرات أسبوعياً أو يدفنوا أنوفهم في الكتب الهزلية. إنني لا أفعل ذلك، إنها تستنفد كثيراً جداً من وقتهم الذي كان من الممكن أن يستخدم في مناشط أكثر بنائية[1].

سلبيات التلفزيون:

يوجه كثير من علماء النفس والاجتماع والتربية والآباء والأمهات

(1) المرجع السابق، ص149.

كثيراً من الاتهامات إلى التلفزيون فيقال إنه يساعد على نمو السلبية واللامبالاة ويضعف من قوة أبصار المشاهد ويلهيه عن القراءة والاطلاع والمناشط الأخرى ويدفع بالشباب إلى ارتكاب جرائم العنف والقتل والسرقة. لذلك رئي في هذه الدراسة إلقاء الضوء على وجهة نظر الشباب اللبناني في هذا الصدد وسألناهم عما إذا كانت المشاهدة تؤدي إلى شيوع الرذيلة والجنس والنصب والاحتيال وعما إذا كان التلفزيون يقيد حركة الجسم ويحرمه من الرياضة وعما إذا كان يؤدي إلى السلبية والتراخي والتكاسل[1].

الفضائيات والتنافس على تغطية الأحداث «الصادمة»

بما أن هذه الفضائيات، كما سبق أن أشرنا، لم يخطط لها استراتيجياً، ولم تكن في معظمها قائمة على رؤية واضحة المعالم، فإن نشراتها الإخبارية دارت في الجزء الأكبر منها حول الأحداث الصادمة وغير المتوقعة من كوارث طبيعية وإنسانية... الخ، وحول الصراعات السياسية المحلية والقومية، وأهملت الجوانب الحياتية والمعيشية للناس. وكذلك لم تقم البرامج الحوارية على جدول أعمال واضح ومحسوب سلفاً لتجيب بمحصلتها العامة عن أهداف مبتغاة، إنما كانت تعمل بجدول أعمال اللاعبين الكبار على الساحة الدولية، أي بمعنى آخر بردود الفعل. فالفضائيات لكونها غير منتجة بالأصل لهذا الكلام

(1) المرجع السابق.

الدائر في رحابها غالباً ما ترتبك أمام الأحداث الصادمة، وغالباً ما تتعامل معها ارتجالياً، وأحياناً تبدو نقاط ضعف العاملين لديها، إن كان على الصعيد المهني أو على صعيد التعامل مع أخلاقيات المهنة أو على صعيد حسن التصرف بسرعة وفي اللحظة عينها بما يتناسب والرؤيا العامة للمحطة[1].

ويمكننا أن نسترجع صورة تعامل المشهد الإعلامي الفضائي مع جريمة اغتيال الرئيس الحريري، لنرى ارتباك هذه الفضائيات على مستوى الأداء المهني، وعلى مستوى أخلاقيات العمل الصحافي، وعلى مستوى تخطي الصحافيين حدود المهنة، والتطفل أو التعدي على مهن أخرى ليست من اختصاصهم، كالقضاة والمحققين والسياسيين، وعلى مستوى اللهاث وراء السبق الصحافي في التصوير وفي نقل المعلومات من دون التأكد منها أو التدقيق بصحتها، حتى ولو كان على حساب المشاعر الإنسانية، بشكل حدا بالعديد من المراقبين على أن يتساءل: هل هو عصر التلفزيون الذي تجاوز هيمنة الصورة إلى حد أن تصبح رموزه بحدٍّ ذاتها قوى محركة للحدث وتفاعلاته؟ فتحل محل المحقق، والقاضي، والمبصِّر، والمتنبئ، والقاتل، والضحية؟!

في الإجمال، هناك إشكالات عديدة حول سبب تعامل الفضائيات

(1) نهوند القادري عيسى، قراءة في ثقافة الفضائيات العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2008، ص109.

مع الصورة ومع التغطية والبث المباشر، وقد صدرت عنها مواقف متناقضة، والدليل على ذلك أن محاولات وضع ميثاق شرف إعلامي لم تلق إجماعاً، ولم تتمكن لغاية الآن من الإجابة عن السؤال الذي لم يزل معلقاً لغاية الآن: أيهما له الأولوية: السبق الأخلاقي أم السبق الصحافي؟

لقد تعرضت هذه الفضائيات للنقد من الصحافة المكتوبة التي اعتبرت أن كاميرات التلفزيونات ركزت على صور الجرحى وأشلاء القتلى من دون أن تأخذ في الاعتبار احترام الشخصية والكرامة الإنسانية والصور المؤذية لعين المتلقي. وحمل ردّ بعض المحطات على هذا الانتقاد تبريرات متفاوتة، تعود في معظمها إلى خصوصية التلفزيون كوسيلة تعمل تحت ضغط الملح والمباشر والآني، فمثلاً مديرة الأخبار في الـ«نيو. تي. في» مريم البسام تجد استحالة في التحكم في البث المباشر وتدافع عن هذه الاستحالة بالقول: «ينتقدون إعلاماً ابن ساعته، كيف تغطي لحظوياً عدسة المصور موقع الانفجار فيه جثث ودماء من دون أن تقع على يد أو رجل؟! فإذا أخضعت صوري للمراقبة يعني ألغيت البث المباشر». في المقابل تبدو إدارة «المنار» أكثر حذراً في هذا الموضوع: «أدرجنا في ميثاق الشرف الداخلي كيفية انتقاء الصور على أرض الواقع، وأوعزنا إلى مصورينا بعدم تأطير عدسة الكاميرا على الجثة والابتعاد قدر الإمكان عن الصور المؤذية». بينما يقول مدير مكتب «الجزيرة» في بيروت: «نحن في الجزيرة اخترنا أن نحتاط وأن لا

نؤذي، على أن نوضح بشاعة الجريمة، ففي الجماد نُبرز البشاعة، وفي الحي لا نُبرزها»[1].

(1) المرجع السابق، ص111.

الفهرس



صدر من السلسلة:

- الإجرام الإعلامي
- إعلام يخرق الصمت
- صحفية على خط النار
- إعلام القاعدة
- حرب الشائعات
- خبر عاجل


ISBN 978-9953-76-343-9

